مقدمات مختصرة في علم

تعريف التفسير:

اختلف علماء اللغة في لفظ التفسير:

١- **فقيل: هو تفعيل من "الفَسْر" بمعنى** الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المشكل**[تهذيب اللغة: الأزهري ج١٢ ص٤٠٧]**. قال تعالى: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} **[سورة الفرقان: الآية ٣٣]**. أي تفصيلا. **[البرهان: الزركشي ج٢ ص١٤٨]**.

٢- **وقيل: هو مقلوب من "سَفَر" ومعناه أيضا الكشف** يقال: سفرت المرأة سفورا إذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة وأسفر الصبح: أضاء وإنما بنوا "فسر" على التفعيل فقالوا: "تفسير" للتكثير. **[المرجع السابع ج٢ ص١٤٧]** وقال الراغب الأصفهاني: "الفسر" و"السفر" يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول ... وجعل السفر لإبراز الأعيان الأبصار فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح **[المرجع السابق ج٢ ص١٤٨]** ومنه قوله تعالى: (والصبح إذا أسفر).

وفي الاصطلاح:

التفسير علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه . [انظر الإتقان: السيوطي ج٢ ص١٧٤]

والتفسير عند ابن عثيمين: بيان معاني القرآن الكريم.

تعريف التأويل :

التأويل، لغةً: من أَوَّل يُؤَوِّلُ تأويلاً، وثُلاثيُّهُ آل يَؤُول؛ أي: رجع وعاد، يقال: آل الشيء جمَعه وأصلحه، فكأنَّ التأويل جمعُ معانٍ مشكلة بلفظ واضحٍ لا إشكالَ فيه.

ويقال: تأولتُ في فلان الأجْر: تحرَّيْته وطلبته، وعن الليث: التأوُّل والتأويل تفسيرُ الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصحُّ إلا ببيان غيرِ لفظه، وأوَّل الكلام تأوَّله دبَّره وقدَّره، وأوَّله وتأوَّله: فسَّره.

أمَّا في الاصطلاح، فهو عند السَّلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه؛ سواء وافَق ظاهره أو خَالَفَه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفَين.

ومنه قوله تعالى: (نبأنا بتأويله)

ومنه دعاء النبي ﷺ لابن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

ومنه قول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى : ....

ثانيهما: هو نفْس المراد بالكلام، فإنْ كان الكلام طلبًا كان تأويله نفسَ الفعل المطلوب، وإن كان خبرًا كان تأويله نفسَ الشيء المخبَر به، وبيْن هذا المعنى والذي قبله فرْقٌ ظاهر.

ومنه قوله تعالى (قال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً).

وقوله : (هل ينظرون إلا تأوله يوم يأت تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ...).

وأما التأويل عند المتأخِّرين: فهو **صَرْف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يَقْتَرِن به**، وعلى هذا فالمتأوِّل مطالَب **بأمرين**:

الأمر الأول: أن يبيِّن احتمالَ اللفْظ للمعنى الذي حمَلَه عليه، وادَّعى أنه المراد.

الأمر الثاني: أن يبيِّن الدليلَ الذي أوجب صرْفَ اللفْظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسدًا، أو تلاعبًا بالنصوص.

تعريف الاستنباط:

النون والباء والطاء في لغة العرب كلمةٌ تدلُّ على استخراج الشيء والانتهاء إليه، واستنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهم، قال الزجاج(ت:٣١١): (معنى يستنبطونه في اللغة: يستخرجونه)، وقال ابن جرير(ت:٣١٠): (وكلُّ من أخرج شيئاً كان مُستَرًّا عن إبصار العيون، أو عن معارف القلوب = فهو مستنبطٌ له, يقالُ: استنبطتُ الرَّكِيَّةَ: إذا استخرجتُ ماءَها، والنَّبَطُ: الماء المستنبطُ من الأرض، ومنه قول الشاعر:

قريبٌ ثَرَاهُ ما يَنَالُ عَدُوُّه *** لَه نَبَطاً آبِي الهوانِ قَطُوبُ

ويستفادُ من هذه المعاني اللغوية ما يأتي:

أولاً: الاستنباط هو الاستخراج باتفاق أهل اللغة وهو المعنى المطابق للَّفظ.

ثانياً: أن في الاستنباط نوعُ اجتهادٍ ومعاناةٍ، دلَّ عليه صيغة اللفظ المفتتحة بحروف الطلب (ا، س، ت)، وعبارة صاحب « العين »: (والانتهاء إليه)؛ المفيدة لبعده عن طالبه، ثمَّ هذا الاجتهاد والعناء في نيل المستَنبَط واضحٌ في ما يبذله مستنبطُ

الماء من البئر، قال ابن القيم(ت:٧٥١): (الاستنباط هو: استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد.

ثالثاً: أن الاستنباط أقرب إلى باطن الكلام منه إلى ظاهره، وأقرب إلى المعاني منه إلى الألفاظ, كما قال الأزهري(ت:٣٧٠): (استنبط الفقيه: إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه)، وهو معنى الاستتار والتواري الذي ذكره ابن جرير(ت:٣١٠)، وقال البغوي(ت:٥١٦): (من العِلم ما يُدرَكُ بالتلاوة والرواية، وهو: النصُّ، ومنه ما يُدرَكُ بالاستنباط، وهو: القياس على المعاني المودعةِ في النصوص) والقياس نوعٌ من الاستنباط، وقال ابن القيم(ت:٧٥١): (الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفي على غير مستنبطه).

أمَّا الاستنباط في استعمال المفسرين فهو :**استخراج ما وراء ظواهر معاني الألفاظ من الآيات القرآنية**.

والمرادُ بظواهر معاني الألفاظ: ما يتوقف فهم القرآن عليها من المعاني المباشرة.

ثانياً :**مقدمات وقواعد في علم الاستنباط**:

الاستنباط والتفسير: يتفقُ علم الاستنباط مع التفسير في أنهما بيانٌ للمعنى، ثم يفترقان في المعنى المبَيَّن في كلٍّ منهما؛ فللتفسير المعنى الظاهر المباشر اللازم لِلَّفظ، وللاستنباط ما وراءه من المعاني الزائدة، وكلاهما من أجلِّ علوم القرآن الكريم، وألصقها بألفاظه.

سمَّى الله تعالى الاستنباط علماً ,فقال سبحانه :وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ

مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (النساء ٨٣)، ولولا أن الاستنباط علمٌ معتبَرٌ, وحُجَّةٌ في الشرع، لَمَا أمر اللهُ تعالى عبادَه برَدِّ ما لم يدركوا علمه نَصَّاً إلى من يدركونه بالاستنباط من أهل العلم(١٤) فالاستنباط من أهمِّ أسباب دَرَكِ العلوم؛ وله من الأصولِ والضوابط التي تجمع جزئياته, وتَلُمُّ متفرِّقاته، ما يجدر معه بأهل العلم إبرازها وتحديدها، بعد جمعها ودرسها.

وللقرآن ظاهرٌ وباطن، أمَّا ظاهره فهو: ظاهر المعنى، والمتبادر من اللفظ. وأمَّا باطنه فهو: المعاني الصحيحة المتَّصِلة بالآية من غير دلالة اللفظ المباشرة، وهذا مجال الاستنباط في هذا العلم, وقد يرتفع المعنى الباطن البعيد فيكون مراداً مع المعنى الظاهر القريب لاشتراكهما في الصحة والقبول والدلالة – كما سيأتي في مبحث التطبيق بإذن الله – لكن لا يصل المعنى الباطن بحالٍ إلى أن يكون مراداً دون المعنى الظاهر، وهذا ما يميز هذا التقسيم عن استعمال الباطنية له؛ فإنهم يؤَصِّلون لهذا التقسيم مع رَدِّهم وإلغائهم للظاهر، والإغراق في معاني باطنة باطلة لا يقبلها نقلٌ صحيح ولا عقلٌ صريح، فيؤول تفسيرهم إلى دعاوى ليست من الظاهر، ولا من الباطن الصحيح في شيء.

المعاني المأخوذة بالاستنباط – بطبيعتها – أكثر وأغنى من معاني الألفاظ المباشرة، بل إن من أحكام الحوادث ما لا يُعرَفُ بالنصِّ وإنما بالاستنباط, وكم من سِرٍّ وحُكمٍ نَبَّهت عليهما الإشارة، ولم تبينهما العبارة(١٨) قال السهيلي(ت:٥٨١): (ليس كل حكم يؤخذ من اللفظ، بل أكثرها تؤخذ من جهة المعاني والاستنباط من النصوص)، إذ الألفاظ محصورة، ومعانيها محددة، والوقائع والمناسبات متجددة، وقد أنْزل الله تعالى كتابه الكريم صالحاً لكُلِّ زمان

ومكان، وتبياناً لِكُلِّ شيء يتوقف عليه التكليف والتعبد، وتستقيم به حياة الناس؛ من العلوم الشرعية.

ولما كانت مراتب العلماء في فهم المراد متفاوتة؛ كان لأهل العلم بالاستنباط اختصاصٌ بجُملَةِ فضائل لا يشركهم فيها غيرهم من العلماء النَّقَلة الحفظة – على فضلهم – ويوضح منازلَ العلماء تلك حديثُ أبي موسى الأشعري مرفوعاً: (مثلُ ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم، كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضاً فكان منها طائفةٌ طيبةٌ، قبلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثير، وكان منها طائفةٌ أجادبَ، أمسكت الماءَ فسقى الناسُ وزرعوا، وأصابَ منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ؛ لا تُمسِك ماءً، ولا تُنبِتُ كلأً، فذلك مثلُ من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله به؛ فعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً, ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)، ففي هذا الحديث إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تفاوت العلماء في ما معهم من الهدى والعلم حملاً وفهماً واستنباطاً.

وقد اجتهد الصحابة في نيل تلك الفضائل والمنازل، وأصاب كلٌّ منهم ما قُسِمَ له؛ فمستَقِلٌّ ومستكثرٌ، وحين تُوُفِّيَ رسولُ الله لم يكن شيءٌ من كتاب الله خَفِيَّ المعنى عنهم، بل كُلُّ كتاب الله تعالى – ألفاظه ومعانيه – معلوم المعنى عند مجموع الصحابة ثُمَّ يتفاوت علم أفرادهم به بحسب ما اختصَّ الله تعالى كُلاًّ منهم, ولما قيل لعلي بن أبي طالب :هل عندكم من رسول الله شيءٌ سوى القرآن؟ قال: (لا والذي فلَقَ الحبَّةَ وبَرَأَ النَّسمَة, إلا أن يُعطِي اللهُ عبداً فهماً في كتابه)، ومنه دعاء النبي لابن عباس: (اللهم فَقِّهْهُ في الدين، وعلِّمهُ التأويل)، ولو كان المراد بهذا الدعاء معرفة معاني الألفاظ الظاهرة لَمَا كان لاختصاص ابن عباس بهذه

الدعوة مزيَّة؛ فإنه ممَّا يشترك فيه كثيرٌ من الصحابة، وإنما المراد ما ذكره علي مِن الفهم في كتاب الله الذي يفتح الله تعالى به على من شاء من عباده، وقد وصف عليٌّ ابنَ عباس بقوله: (كأنما ينظر إلى الغيب من سترٍ رقيقٍ)، ولما بلغَه رأيَ ابن عباس في حادثةِ تحريق من غلو فيه قال: (ويح ابن أم الفضل؛ إنه لغوَّاص)، وكان عمر يأذن له مع المهاجرين، ويسأله ويقول: (غُصْ غَوَّاص)، وأمَّا عمر فهو المحَدَّثُ الملهَم، وحسبه أنه ممَّن عُنِيَ بقوله تعالى: (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (النساء ٨٣)، حيثُ قال في سبب نزولها: (فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر).

قال ابن تيمية(ت:٧٢٨) مبيناً تفاوت الصحابة في الفهم والاستنباط: (وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة، وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: (سمعت، ورأيت)، وسمع الكثيرَ من الصحابة، وبورك في فهمه والاستنباط منه، حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً، قال أبو محمد بن حزم : "وجُمِعَت فتاويه في سبعة أسفار كبار" وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس، وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي، وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص، فأنبتت من كل زوج كريم، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم (الجمعة:٤)، وأين تقع فتاوي ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوي أبي هريرة وتفسيره، وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق؛ يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه، وهمة

ابن عباس مصروفة إلى التفقه، والاستنباط، وتفجير النصوص، وشقِّ الأنهار منها، واستخراج كنوزها).

ومن ثَمَّ يشتدُّ حبور العالم وسروره حين يظفر بشيء من فرائد المعاني المستنبطة؛ مستشعراً نعمة الله تعالى وفضله عليه, ومن ذلك قول الشافعي(ت:٢٠٤) :(استنبطتُ البارحةَ آيتين، فما أشتهي باستنباطهما الدنيا وما فيها).(٣٨)

علاقةُ علم الاستنباط بعلم التفسير:

الاستنباط على ما سبق تعريفه من أشد علوم القرآن ارتباطاً بعلم التفسير، ولا يتوصل إليه إلا بعد بناء التفسير وتمامه، وقد قَسَمَ ابنُ القيم(ت:٧٥١) التفسيرَ إلى ثلاثةِ أقسام، فقال: (وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول:

١- تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحُو إليه المتأخرون.

٢- وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف.

٣- وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحُو إليه كثير من الصوفية وغيرهم).

والقسم الثالث من هذه الأقسام داخلٌ في علم الاستنباط من معاني الآيات، إذ ليس هو بتفسير على اللفظ ولا على المعنى؛ فإنهما ظاهران مباشران، ويبقى الاجتهاد والتأمُّل في هذا القسم. والاستنباط أعمُّ من القياس، وإنما القياس أحد صوره وأشهرها، وعَدُّ هذا القسم من التفسير نوعُ تَوَسُّعٍ سبقت الإشارة إليه.

قال ابن تيمية(ت:٧٢٨) عن هذا الوجه من التفسير: (أما أرباب الإشارات

الذين يثبتون ما دلَّ اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار، فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس والاعتبار، وهذا حقٌّ إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً، واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً)، وقال في طرق دلالة اللفظ على المعنى الصحيح: (القسم الثاني: أن يُجعَل ذلك من باب الاعتبار والقياس، لا من باب دلالة اللفظ، فهذا من نوع القياس، فالذي تسميه الفقهاء قياساً، هو الذي تسميه الصوفية إشارة، وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل، كانقسام القياس إلى ذلك)، فالإشارات من باب الاعتبار والقياس، واختصَّ بها في الغالب أرباب السلوك وتزكية النفوس، ومنها صحيحٌ مستقيمٌ، وفاسدٌ منحرفٌ.

تعريف التدبر لغة : مصدر (تدبر) ، وأصل هذه المادة (د ب ر)، يدل على آخر الشيء وخلفه.

التدبر بمعناه العام: التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه .

التدبر بمعناه الشرعي: النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعبر والمقاصد، الذي يثمر العلوم النافعة ، والأعمال الزكية.

شرح التعريف:

المراد من تعريف التدبر: الوصول تأمل الآيات للاهتداء بما دلَّت عليه علمًا أو عملاً ، ويحتاج المتدبر إلى أناة وتمهل للاهتداء بما دلَّت عليه: هذه الغاية من التدبر، قال تعالى: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [الإسراء٩].

علمًا أو عملاً: لأن التدبر إذا خلا من هاتين الثمرتين فهو ناقص، وهدايات التدبر قد تكون علمية أو عملية أو معًا.

العلاقة بين التدبر وما يقاربه من الألفاظ

علاقته بالتفسير :

التفسير لغة: من فسّر الكلام أي أبان معناه وأظهره . والتفسير اصطلاحا: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

والعلاقة بينهما متلازمة، فالتوصل إلى مراد الله تعالى من كلامه يحتاج إلى تدبر، كما أن التدبر يتوقف على المعنى.

علاقته بالتأويل :

للتأويل معنيان:

الأول: التفسير ، كدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (وعلمه التأويل)

الثاني: ما يؤل إليه الشيء في ثاني حال، فتأويل الخبر بوقوع المخبر.

والعلاقة من حيث المعنى الأول القول فيها كالقول في التفسير، ومن حيث المعنى الثاني فيكون ذلك بالامتثال والعمل والتطبيق .

علاقته بالبيان :

البيان: بَانَ الشيء: اتضح وانكشف ، فالعلاقة بينهما علاقة ملازمة كالتفسير.

علاقته بالاستنباط :

الاستنباط: استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك.

فالاستنباط قدر زائد على مجرد فهم اللفظ والكشف عن معناه، وهذا يكون نتيجة التدبر.

فضله وشرفه:

لما كان التدبر متعلق بكتاب الله، صار من أشرف الأمور وأجلها، لأن شرف الشيء بشرف متعلقه.

وللتدبر من النتائج والثمرات ما هو في غاية النفع، والتدبر شأن العالمين الذين يعقلون كتاب الله.

الفرق بين التدبر والاستنباط:

الاستنباط أخصُّ وأدقُّ من التدبر، فالتدبر يكون في المعاني الواضحة والغامضة، أما الاستنباط فلا يكون إلا في المعاني الغامضة والدقيقة، ودليل ذلك قوله تعالى عن المنافقين: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [النساء٨٣] فالاستنباط وقع من أولي الأمر والعلم وحدهم، وليس كل أهل العلم يستنبطون في كل الحوادث، فبعضهم يستنبط في حادثة وبعضهم يستنبط في حادثة أخرى.

نماذج من المؤلفات في التدبر للقرآن الكريم:

١- قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم. للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني. مجلد من مطبوعات دار القلم في دمشق.

٢- تدبر القرآن لعمر السنيدي. وله ملخص له في كتب صغير وكلاهما صدرا عن مجلة البيان.

٣- الخلاصة في تدبر القرآن الكريم - خالد بن عثمان السبت.

٤- معارج التفكر ومعالم التدبر لحبنكة الميداني كذلك وهو تفسير تدبري للقرآن لم يتم.

٥- المعين على تدبر الكتاب المبين لمجد مكي وهو تفسير تدبري مختصر في مجلد.

٦- أوراق عمل (ملتقى تدبر القرآن الأول بالرياض) وهو موجود كأبحاث على ملتقى أهل التفسير.

٧- تعليم تدبر القرآن الكريم. للدكتور هاشم الأهدل - مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي بجدة.

٨- الحياة من جديد (دعوة لتدبر القرآن) للأستاذة أسماء الرويشد.

٩- تدبر القرآن الكريم آدابه وضوابطه المنهجية محمود هاشم عنبر

نشأة علم التفسير وتطوُّره

مرّ علم التفسيرِ في نشأته وتطوره بمجموعةٍ من المراحلِ، وبيانُ هذه المراحلِ كالآتي:

التفسير في عصر النبيّ والصحابة:

بدأ التفسير في عهد النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-؛ إذ كان القرآن ينزل على النبيّ -عليه الصلاة والسلام- مُفرَّقاً حسب الحوادث، والوقائع، وكان -عليه الصلاة والسلام- يُفسّر للصحابة، ويُبيّن لهم ما أُشكِل عليهم من معاني الآيات المنزَلة، وهو -عليه الصلاة والسلام- أعلم الناس بالقرآن الكريم، ومعانيه، وهو المصدر الأوّل في تفسير القرآن على الإطلاق، ومن أمثلة تفسيره -صلّى الله عليه وسلّم- آياتِ القرآن، تفسيرُه قولَ الله -تعالى-: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، إذ قال: (فإنَّه نَهْرٌ وعَدَنِيهِ رَبِّي عزَّ وجلَّ).[رواه مسلم، في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك، الصفحة أو الرقم: ٤٠٠، صحيح].

وقد أخذ بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- العلم بالقرآن الكريم، وببيان معانيه وألفاظه عن النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-؛ فكان منهم ستّة عشر صحابيّاً من أئمّة التفسير، ومن بينهم عائشة -رضي الله عنها-، ومنهم من كانت آراؤه في التفسير يسيرة، ولم يرِد عنه سوى القليل، ومنهم من أكثر منه، وأصبح عَلَماً فيه؛ فأكثروا من الرواية عن النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، واجتهدوا في تفسير ما لم يَرد فيه شيء عنه -عليه الصلاة والسلام-، ومن هؤلاء أربعة:

١- عبدالله بن عباس -رضي الله عنه-.

٢- عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-.

٣- علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

٤- أبيّ بن كعب -رضي الله عنه-.

ومع توسُّع المسلمين في الأمصار، وانتشار الصحابة، نشأت في كلّ بلد ذهبوا إليها مدرسة للتفسير:

١- فكان ابن عبّاس في مكّة.

٢- وأبيُّ بن كعب في المدينة.

٣- وعبدالله بن مسعود في الكوفة.

ومن هنا انتشر علم التفسير من الصحابة إلى تابعيهم، ومنهم إلى تابعيهم، وهكذا، وكانت الوسيلة الأولى لحِفظ هذا العلم حِفظه في الصدور؛ بوصفها الوسيلة الأهمّ؛ لحِفظ العِلم.

وكان الصحابة -رضي الله عنهم- قليلي الاختلاف فيما يخصّ فَهم معاني القرآن، وتلك إحدى مُميّزات التفسير في عصرهم، كما أنّهم كانوا يكتَفون في تفسير الآية بالمعنى الإجماليّ لها، كما أنّ الخلاف المِذهبي حول الآيات كان قليلاً، وكان التفسير يأخذ شكل رواية الحديث، ولم يُدوّن في عصرهم، وإنّما كان يُحفَظ سماعاً، وكانوا -رضي الله عنهم- قليلي الأخذ من أهل الكتاب.[تفسير مقاتل بن سليمان (الطبعة الأولى)، بيروت: دار إحياء التراث، صفحة ١٣، جزء ٥. بتصرّف] التفسير في عصر التابعين يُعَدّ عصر الصحابة المرحلة الأولى من مراحل التفسير، وقد بدأت مع انتهاء عصرهم المرحلةُ الثانية من مراحل نشوء علم التفسير وتطوُّره؛ وهي مرحلة التابعين من تلاميذ الصحابة -رضوان الله عليهم-، وكان القرآن الكريم مصدرهم الأوّل للتفسير في تلك الفترة؛ إذ كان يُفسّر بعضَه بعضاً.[التفسير والمفسرون، القاهرة: مكتبة وهبة، صفحة ٧٦، جزء ١. بتصرّف] ثمّ سُنّة النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- والتي وصلت إليهم عن طريق الصحابة، ثمّ ما فسَّرَه الصحابة أنفسهم، وما أُخِذَ من أهل الكتاب، وإن لم يجدوا في ذلك كلّه، اجتهدوا برأيهم وبنَظَرهم في كتاب الله -تعالى-.

وقد قامت في تلك الحِقبة عدّة مدارس للتفسير في البلاد المفتوحة، والأمصار المختلفة، وبيان هذه المدارس كالآتي:

أوُلى هذه المدارس وأشهرها مدرسة مكّة المُكرَّمة: التي كان على رأسها الصحابيّ عبدالله بن عبّاس –رضي الله عنه–، ومن بَعده تلاميذه: سعيد بن جبير، وعِكرمة، وطاووس بن كيسان، ومُجاهد، وعطاء بن أبي رباح. [التفسير والمفسرون، القاهرة: مكتبة وهبة، صفحة ٧٦/١. بتصرّف].

وثانيها مدرسة المدينة: وأشهر المفسِّرين من التابعين فيها: أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم.

وثالثها مدرسة العراق: والتي تتلمذَ المفسِّرون فيها على يد الصحابيّ عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه–، وأشهرهم: مسروق بن الأجدع الكوفيّ، وقتادة بن دعامة السدوسيّ البصريّ، والحسن البصريّ، ومرّة الهمذانيّ.

وقد اعتمد المفسِّرون في هذه المرحلة على التلقّي، والرواية، بالإضافة إلى الاختصاص الذي اتَّسمَت به مدرسة التفسير من حيث تبعيّة كلّ واحدة منها لصحابيّ.

التفسير منذ عصر التدوين الى اليوم:

بدأ عصر تدوين التفسير في بداية القرن الثاني الهجريّ مع بَدء تدوين الحديث الشريف؛ إذ كانت تُفرَد للتفسير أبوابٌ خاصّةٌ ضمن كُتب الحديث، وكان التدوين في هذه المرحلة يأخذ شكل التدوين بالإسناد؛ أي بذِكر سَنَد الأحاديث، والأقوال المذكورة.

ومع استقلال العلم، وانتشار الكتابة والتدوين، أصبحَت للتفسير كُتبٌ خاصّةٌ مُستقِلّةٌ عن كُتب الحديث، فبدأت هذه الكُتُب تُورد الأقوالَ دون إسنادها إلى أصحابها؛ وهو ما يُطلَق عليه (اختصار الأسانيد)، ويُعَدّ هذا الأمر سلبيّاً فيها، وهذا ما أدّى إلى ورود العديد من الأقوال الموضوعة، وكثرة النَّقْل من الإسرائيليّات.

وكان استقلال هذا العلم على أيدي عدد من العلماء، كابن جرير الطبريّ، وابن ماجة، وكان التفسير مُعتمِداً على التفسير بالمأثور، وفي العصر العبّاسي بدأ التفسير بالرأي: أي بالفَهم الشخصيّ والنَّظَر، ودخل في ذلك علم اللغة العربيّة، والفِقه، كما دخلت في ذلك النَّزْعة العقليّة المذهبيّة. [التفسير والمفسرون، القاهرة: مكتبة وهبة، صفحة ١/٣٦-٣٩. بتصرّف].

وقد اتّخذ التفسير في العصر الحديث مَنحىً جديداً؛ فانتشرت المطابع، ونَشَطت حركات التأليف في العلوم الإسلاميّة، وظهرت دراسات تفسيريّة جديدة؛ إذ أثّرَت الأحداث، والوقائع، والاتّجاهات في طريقة التفسير؛ فظهرت النزعة العِلميّة بإدخال النظريّات العِلميّة في تفسير القرآن، إلّا أنّ التفسيرات الحديثة تميَّزَت بسهولة العبارة، والوصول إلى شريحة أكبر، ومنها: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير الشيخ السعدي، وتفسير الشيخ أبو بكر الجزائري.

شروط المفسر :

يجوز تفسير القرآن الكريم لمن كان جامعًا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها وهي **خمسة عشر علمًا:**

أحدها: اللغة – ومراده بها هنا علم مفردات اللغة – ؛ لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثاني: النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره.

الثالث: التصريف لأن به تعرف الأبنية والصيغ.

الرابع: الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح.

الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح

الدلالة وخفائها وبالثالث وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة وهي من أعظم أركان المفسر لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: أصول الدين بما في القرآن من الآية الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى، والمراد بالأصول هنا أصول الدين وهي العقيدة.

العاشر: أصول الفقه إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط.

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: الفقه.

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

الخامس عشر: علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بما روي من "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" وهذا لا يصح بل موضوع وإن كان معناه صحيح تدل عليه نصوص من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: " **وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** " وقوله " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**" وقوله : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " وفي الأثر عن ابن مسعود رضي

الله عنه قال: " تعلموا ، تعلموا ، فإذا علمتم فاعملوا" قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن وما يستنبطه منه بحر لا ساحل له.

قال السيوطي بعد أن عَدَّ علم الموهبة من العلوم التى لا بد منها للمفسِّر: "ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شئ ليس فى قدرة الإنسان. وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال فى البرهان: "اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا تظهر له أسراره، وفى قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب دنيا، أو هو مُصِرٌ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسِّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها آكد من بعض" قلت: وفى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق﴾ "**[الأعراف: ١٤٦] [انظر التفسير والمفسرون للذهبي ١ / ١٩٠]** .

مصادر التفسير بالمأثور:

وتسمى "طرق التفسير بالمأثور" وهي:

١- **القرآن: تفسير القرآن بالقرآن** أفضل طرق التفسير ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ **[سورة البقرة: الآية ٣٧]**، بقوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ **[سورة الأعراف: الآية ٢٣]**.

٢- **تفسير القرآن بالسنة**: قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[سورة النحل: الآية ٤٤]**. وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "السنة تفسر القرآن وتبينه" **[الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ج٣٩/١]**، ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى. وتفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل.

٣- **تفسير القرآن بأقوال الصحابة:** وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ولا في السنة فعليك بتفسير الصحابة -رضي الله عنهم- فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤- **تفسير القرآن بأقوال التابعين:** وقد اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، فمنهم من عد أقوال التابعين مصدرًا من مصادر التفسير بالمأثور ومنهم من عدها كسائر أقوال العلماء.

أنواع الاختلاف في التفسير وأمثلة ذلك

[الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

الصنف الأول: أن يُعبِّر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، بمنْزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة ، كما يقول شيخ الإسلام . في معرض حديثه عن اختلافهم في التفسير: «وأما ما صح عن السلف أنهم اختلفوا فيه اختلاف تناقض فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يختلفوا فيه».

قد ذكر في موضع آخر هذه المصطلحات، وهو في معرض شرحه لعبارة في الإحكام لأصول الأحكام، للآمدي في مسألة اشتمال اللغة على الأسماء المجازية، فقال: (... وذلك أن قوله «يلزم الاشتراك»؛ إنما يصح إذا سُلِّم له أن في اللغة الواحدة باعتبار اصطلاح واحد ألفاظًا تدل على معان متباينة من غير قدر مشترك، وهذا فيه نزاع مشهور، وبتقدير التسليم؛ فالقائلون بالاشتراك متفقون على أنه في اللغة ألفاظ بينها قدر مشترك وبينها قدر مميز، وهذا يكون مع تماثل الألفاظ تارة، ومع اختلافها أخرى، وذلك أنه كما أن اللفظ قد يتَّحدُ ويتعدَّدُ معناه فقد يتعدَّدُ ويتَّحدُ معناه كالألفاظ المترادفة، وإن كان من الناس من ينكر الترادف المحض، فالمقصود أنه قد يكون اللفظان متفقين في الدلالة على معنى، ويمتاز أحدهما بزيادة؛ كما إذا قيل في السيف: إنه سيف وصارم ومهند، فلفظ السيف يدل عليه مجردًا، ولفظ الصارم . في الأصل .

يدل على صفة الصرم عليه، والمهند يدل على النسبة إلى الهند، وإن كان يعرف الاستعمال من نقل الوصفية إلى الاسمية، فصار هذا اللفظ يطلق على ذاته مع قطع النظر عن هذه الإضافة، لكن مع مراعاة هذه الإضافة؛ منهم من يقول: هذه الأسماء ليست مترادفة؛ لاختصاص بعضها بمزيد معنى.

ويمكن اختصار هذه المصطلحات كالآتي:

١ – الألفاظ المتباينة: هي الألفاظ المختلفة التي تدل على معانٍ مختلفة؛ كالسيف والفرس.

٢ – الألفاظ المترادفة: أن يكون للشيء الواحد عدد من الألفاظ تدلُّ عليه كأسماء الأسد.

٣ – الألفاظ المتكافئة: هي الألفاظ التي تتفق في الدلالة على الذات، وتختلف في الدلالة على الصفات؛ كأسماء الله.

وإذا تأمَّلت الفرق بين المترادفة والمتكافئة، فإنك ستجده فرقًا دقيقًا، فمن لم يعتبر الفروق في الألفاظ الدالة على شيء واحدٍ جعلها مترادفة، ومن اعتبر فروق المعاني في الألفاظ الدالة على شيء واحد جعلها متكافئة، والله أعلم.

إذا عُرف هذا، فالسلف كثيرًا ما يعبّرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر؛ كمن يقول: أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب. والقدوس هو الغفور والرحيم؛ أي أن المسمَّى واحد، لا أن هذه الصفة هي هذه الصفة، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس.

مثال ذلك تفسيرهم (للصراط المستقيم):

فقال بعضهم: هو القرآن؛ أي: اتباعه؛ لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم في حديث علي الذي رواه الترمذي، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم» . يصح موقوفاً على علي رضي الله عنه، أما رفعه ففيه مقال.

وقال بعضهم: هو الإسلام؛ لقوله صلّى الله عليه وسلّم في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: «ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مُرْخَاة وداعٍ يدعو من فوق الصراط، وداعٍ يدعو على رأس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن»، فهذان القولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبَّه على وصف غير الوصف الآخر.

كما أن لفظ «صراط» يُشْعِرُ بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، وأمثال ذلك، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ الخبز، فأُرِيَ رغيفًا وقيل له: هذا. فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده.

مثال ذلك ما نقل في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢]. فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيعَ للواجباتِ، والمنتهكَ للمحرماتِ.

والمقتصد يتناول فاعل الواجبات، وتارك المحرمات.

والسابق يدخل فيه من سبق فتقرَّب بالحسنات مع الواجبات.

فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق: الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع

والناس في الأموال إما محسن، وإما عدلٌ، وإما ظالم، فالسابق المحسن بأداء المستحبَّات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة، ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل.

يشير إلى قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ يَاكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٧٤ ـ ٢٧٥].

فكل قول فيه ذِكْرُ نوعٍ دخل في الآية ذُكِرَ لتعريف المستمع بتناول الآية له، وتنبيهه به على نظيره؛ فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحدِّ المطابق. والعقل السليم يتفطن للنوع، كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف، فقيل له: هذا هو الخبز].

انظر مقدمة شيخ الاسلام ابن تيمية في التفسير

مناهج التفسير:

لم يكن الصحابة –رضي الله عنهم– ولا الناس من بعدهم أيضًا على درجة واحدة في فهم القرآن الكريم، بل كانوا يتفاوتون في ذلك، فقد كان يشكل على بعضهم ما لا يشكل على بعضهم الآخر، ويرجع ذلك إلى تفاوتهم في معرفة اللغة ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول، زد على ذلك تفاوتهم في القدرة العقلية شأن البشر كلهم، ولو تساوت الأذهان في إدراك معاني القرآن لبطل التنافس وضعفت الهمم لزوال ما يحملهما على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر، لكن الله جلت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتمل أحيانًا معاني كثيرة وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها وحث على ذلك فتنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم في تفسيرها لينالوا الأجر العظيم والثواب الجزيل، وسلك العلماء في ذلك **منهجين لتحصيل معاني القرآن، هما:**

١– التفسير بالمأثور.

٢– التفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور

تعريفه:

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم، فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته.

مكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الله تعالى، فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الرسول –صلى الله عليه وسلم–

فهو المبَيِّن لكلام الله تعالى، وإما أن يكون بأقوال الصحابة فهم الذين شاهدوا التنزيل وهم أهل اللسان وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول، لكن ينبغي أن يعلم أن هذا مشروط بصحة السند عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أو عن الصحابة رضي الله عنهم.

وينبغي أن نتفطن إلى أن التفسير بالمأثور قد دخله الوضع وسرى فيه الدس والخرافات ويرجع ذلك إلى أمور منها:

١– ما دسَّهُ أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدس الأخبار المحرفة التي يجدونها في كتبهم.

٢– ما دسه أصحاب المذاهب الباطلة والنحل الزائفة كالرافضة الذين افتروا الأحاديث ونسبوها زورًا وبهتانًا إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– أو إلى أصحابه رضي الله عنهم.

٣– نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناده مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغير الصحيح والتباس الحق بالباطل؛ لذا فإنه ينبغي التثبت عند الرواية للتفسير بالمأثور، وعلى هذا فإن **التفسير بالمأثور نوعان:**

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب السابقة، وهذا يجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا لتمحيصه أو التنبيه إلى ضلاله حتى لا يغتر به أحد. **[انظر مناهل العرفان: الزرقاني: ج١ ص٤٩٣].**

حكم التفسير بالمأثور:

ينقسم التفسير بالمأثور إلى قسمين:

١– **ما توافرت الأدلة على صحته**. فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العدول عنه.
٢– **ما لم يصح** فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا للتحذير منه.

أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور

المؤلفات في التفسير بالمأثور كثيرة ومن أهمها:

أولًا: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

مؤلفه: هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في "آمُل" في طبرستان سنة ٢٢٤هـ وتوفي في بغداد سنة "٣١٠ هـ "**[طبقات المفسرين: الداودي ج٢ ص١١٤]**. كان عالمًا بالقراءات، وإمامًا في التفسير، بارعًا في الحديث، وشيخًا للمؤرخين، انفرد في الفقه بمذهب مستقل وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون**[طبقات المفسرين: السيوطي ص٩٦]**. وقال ابن خزيمة: "ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير"**[طبقات المفسرين: الداودي ج٢ ص١١١]**.، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب في القراءات و"تاريخ الرجال" في الصحابة والتابعين، و"لطيف القول" جمع في مذهبه الذي اختاره، "وتهذيب الآثار"، ومن أهم كتبه "تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم".

تفسيره:

"جامع البيان عن تأويل آي القرآن" فلم يُؤلَّف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور، **ويتميز تفسيره بمزايا منها:**

١- اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه والتابعين.

٢- التزامه بالإسناد في الرواية.

٣- عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.

٤- ذكره لوجوه الإعراب.

٥- دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات.

وكان هذا التفسير مفقودًا إلى وقت قريب حيث عُثر على نسخة مخطوطة منه عند أحد أمراء حائل، وهو حمود بن عبيد الرشيد، **[مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسيهر. ترجمة د. عبد الحليم النجار ص١٠٩ والتفسير والمفسرون: الذهبي ج١ ص٢٠٧]**. وقد تم طبعه على هذه النسخة في ثلاثين جزءًا سنة ١٣١٩.

ثم قام الشيخان الفاضلان محمود وأحمد شاكر بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ومراجعته وتخريج أحاديثه وصدر منه ستة عشر جزءًا إلى نهاية تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، ثم توقف العمل، نسأل الله أن يهيئ من عباده العلماء من يُتمُّه.

قال الخطيب: "وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله"**[تاريخ بغداد ج٢ ص١٦٣]**. وقال الذهبي: "وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله" **[سير أعلام النبلاء: ج١٤ ص٢٧٠]**. وقال النووي: "أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري". **[تهذيب الأسماء واللغات: ج١ ص٧٨]** وقال أبو حامد الإسفراييني: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا". **[طبقات المفسرين: الداودي ج٢ ص١٠٩]**. وقال ابن تيمية: "وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة. وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي"**[مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٣ ص٣٨٥. أما مقاتل بن بكير فلم أجده في كتب الرجال ولعله "مقاتل بن سليمان بن بشير" وتصحف إلى بكير ويؤيد هذا أن تفسيره وتفسير الكلبي متشابهان حتى قيل: "أن مقاتلا أخذ التفسير عن الكلبي" التهذيب ج١٠ ص٢٨١. وابن جرير لم يرو عن مقاتل هذا، أما الكلبي وهو محمد بن السائب فقد روى عنه نادرًا مع وصفه له بأنه ممن لا يحتج بنقله. ج١ ص٦٦ والله أعلم]**.

ثانياً: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير:

مؤلفه: هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ولد في بُصْرى في الشام سنة ٧٠٠ هـ، طلب العلم في صغره ورحل في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه"ت٧٧٤هـ" رحمه الله تعالى. **[طبقات المفسرين: الداودي ج١ ص١١١]**. ومن مؤلفاته: البداية والنهاية، والاجتهاد في طلب الجهاد، وجامع المسانيد العشرة، والكواكب الدراري، وغير ذلك.

تفسيره:

يعد تفسير ابن كثير من أشهر ما دُوِّن في التفسير بالمأثور ويعتبر في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري، قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: "له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله"، وقال الشوكاني: "هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها". **[مقدمة تحقيق تفسير ابن كثير ج١ ص١٩ تحقيق سامي السلامة]** .

وطريقته في التفسير: أن يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة، موجزة ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها، وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سردًا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد. **[التفسير والمفسرون: الذهبي ج١ ص٢٤٤]**. ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالا أحيانًا وبالتفصيل حينًا آخر. **[المرجع السابق ج١ ص٢٤٥]**.

وبالجملة يعد تفسيره –رحمه الله تعالى– من أفضل المؤلفات في التفسير، وقد طبع مرات كثيرة مع تفاسير أخرى، ومستقلا في أربعة مجلدات كبار، واختصره عدد كبير من العلماء، منهم الأستاذ أحمد شاكر، ومحمد نسيب الرفاعي وغيرهما.

ثالثاً: الدر المنثور: السيوطي:

مؤلفه:

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ولد سنة ٨٤٩، وتوفي سنة ٩١١ وبعد أن تلقى العلوم وحصل منها حظاً وافراً انصرف إلى التأليف في وقت مبكر من حياته، ثم تجرد للتأليف في أواخر عمره فاعتزل الناس وترك وظائفه من تدريس وإفتاء.

تفسيره:

ألف السيوطي –رحمه الله تعالى– كتابه "ترجمان القرآن" ثم أراد أن يختصره وعلل هذا بقوله: رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصرا فيه على متن الأثر مُصدَّراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**. **[الدر المنثور: السيوطي: ج١ ص٢.]** وطبع هذا التفسير في ستة مجلدات وهو بحاجة ماسة إلى عناية طلبة العلم، وخدمته بالتحقيق والتخريج والفهرسة والإخراج.

رابعاً: .....

التفسير بالرأي وأهم المؤلفات فيه:

تعريفه: هو تفسير القرآن بالاجتهاد.

وينقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود: وهو التفسير المستمد من القرآن ومن سنة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وكان صاحبه عالماً باللغة العربية وأساليبها، وبقواعد الشريعة وأصولها.

حكمه:

أجاز العلماء –رحمهم الله تعالى– هذا النوع من التفسير ولهم أدلة كثيرة على ذلك منها:

١– قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

٢– دعاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– لابن عباس بقوله: "اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل" ولو كان التفسير مقصورًا على النقل ولا يجوز الاجتهاد فيه لما كان لابن عباس مزية على غيره.

٣– أن الصحابة –رضي الله عنه– اختلفوا في التفسير على وجوه، فدل على أنه من اجتهادهم.

وبهذا يظهر أن التفسير بالرأي المحمود جائز. والله أعلم.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

هو التفسير بمجرد الرأي والهوى، وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء والبدع الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل، ففسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى.

حكمه:

وهذا النوع من التفسير حرام لا يجوز، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام" **[مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية ص١٠٥]**. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. [سورة الإسراء: الآية ٣٦] .

٢- حديث: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار" **[مسند الإمام أحمد: ج١ ص٢٣٣، سنن الترمذي ج٥ ص١٩٩ وقال: "حديث حسن صحيح".]** وحديث: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". **[٥ سنن الترمذي ج٥ ص٢٠٠ وأبو داود ج٣ ص٣٢٠]**.

أهم المؤلفات في التفسير بالرأي: والمؤلفات في التفسير بالرأي كثيرة منها:

أولًا: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري.

المؤلف:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري **[انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي ج٣ ص٣١٤، ٣١٦، وطبقات المفسرين: للسيوطي ص١٢٠، ١٢١]** . المعتزلي، الملقب بجار الله، ولد سنة ٤٦٧ في زمخشر من قرى خوارزم، بعد أن تلقى العلم رحل إلى مكة وألف فيها تفسيره الكشاف، ثم عاد إلى خوارزم، وتوفي فيها سنة (٥٣٨ هـ) وهو إمام من أئمة اللغة، لا يأنف من انتمائه إلى

الاعتزال بل يجاهر به، ويدعو إليه، ومن مؤلفاته: "أساس البلاغة" و"الفائق في غريب الحديث" و"المفصل" في النحو.. وغيرها.

تفسيره:

اعتنى الزمخشري في تفسيره هذا ببيان وجوه الإعجاز القرآني وإظهار جمال النظم وبلاغته، وخلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، وإيراد الإسرائيليات إلا القليل. والزمخشري قليل الاستشهاد بالحديث، ويورد أحيانًا الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور. وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها وتأويل الآيات وِفْقَهَا ويدس ذلك دسًّا لا يدركه إلا حاذق حتى قال البلقيني: "استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش". **[الإتقان في علوم القرآن: السيوطي ج٢ ص١٩٠]** . وهو شديد على أهل السنة والجماعة ويذكرهم بعبارات الاحتقار ويرميهم بالأوصاف المقذعة، ويمزج حديثه عنهم بالسخرية والاستهزاء. **[التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي ج١ ص٤٦٥.]** ولهذه الأمور وغيرها نبه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، فقال الإمام الذهبي: "محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله، فكن حذرا من كشافه". **[ميزان الاعتدال: الإمام الذهبي ج٥ ص٢٠٣.]** وقال علي القاري: "وله دسائس خفيت على أكثر الناس فلهذا حرم بعض فقهائنا مطالعة تفسيره لما فيه من سوء تعبيره في تأويله وتعبيره". **[مناهج المفسرين: د. مساعد آل جعفر ومحيي هلال ص٢١٦ عن طبقات الفقهاء الحنفية: لأبي علي القاري ورقة ٤٩ ب "مخطوط"]**. وينبغي لمن أراد أن يقرأ فيه أن يرجع لكتاب "الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال" لابن المنير وهو مطبوع مع الكشاف وفيه كشف لاعتزالياته وضلالاته.

ثانياً: مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي:

مؤلفه:

أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين **[انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي ج١ ص٢١٣-٢١٧، وطبقات المفسرين: السيوطي ص١١٥، ١١٦]**.

ولد في الرَّي سنة ٥٤٤ وتوفي في هَرَاة سنة ٦٠٦ جمع كثيرًا من العلوم فكان إمامًا في التفسير، وعلوم الكلام. وكان طبيبا حاذقا، وقد ندم على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام. ثم يبكي. **[الإتقان في علوم القرآن: السيوطي ج٢ ص٢٩٠]**.

ومن مؤلفاته: مفاتيح الغيب، والمحصول في علم الأصول، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ومسائل الطب، وغير ذلك.

تفسيره:

يعد تفسير "مفاتيح الغيب" أوسع التفاسير في علم الكلام فقد تأثر كثيرا بالعلوم العقلية، فتوسع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية، وملأ تفسيره بهذه العلوم حتى قيل عنه: "فيه كل شيء إلا التفسير" ومما يعاب عليه أنه يبسط دلائل أهل البدع والفرق المخالفة لأهل السنة بسطاً لا مزيد عليه ثم يرد عليها رداً غاية في الوَهَاء حتى قال بعض العلماء: إنه "يورد الشبه نقدًا ويحلها نَسيئة". **[لسان الميزان: ابن حجر ج٤ ص٤٢٧، ٤٢٨.]** ولم يتم الرازي تفسيره هذا، بل قيل: إنه بلغ في التفسير إلى سورة الأنبياء، ثم جاء تلميذه الخُوَيّي فشرع في تكملته ولم يتمه، وأتمه نجم الدين القَمولي، وقيل: إن الخويي أكمله، وكتب القمولي تكملة أخرى غيرها، ولا يكاد القارئ يلحظ تفاوتا بين أساليبهم. **[التفسير والمفسرون: الذهبي ج١ ص٢٩٣]** وقد طبع هذا التفسير في ٣٢ جزءًا وتقع في ١٦ مجلدًا كبيرًا.

ثالثاً: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لابن سعدي:

المؤلف:

هو عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي **[انظر ترجمته في كتاب مشاهير علماء نجد وغيرهم تأليف عبد اللطيف آل الشيخ]**. ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧ توفي والده وهو صبي فكفلته زوجة أبيه وأدخلته مدرسة تحفيظ القرآن، فحفظه في الرابعة عشرة من عمره، واشتغل في طلب العلم فقرأ الكتب، وحفظ المتون ثم تصدى للتعليم ونشر العلم حتى ذاع صيته.

ومن مؤلفاته، "تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن" وهو خلاصة لهذا التفسير و"القواعد الحسان لتفسير القرآن" و"التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة" و"الفواكه الشهية في الخطب المنبرية".. وغير ذلك. توفي رحمه الله تعالى في عنيزة سنة ١٣٧٦.

تفسيره:

يقع هذا التفسير في سبعة مجلدات ثم طبع في مجلد واحد، ومع هذا فهو تفسير يميل إلى الإيجاز مع وضوح المعنى، ويعتمد المعنى الإجمالي للآيات حيث يورد مجموعة من الآيات، ثم يفسرها آية آية، وقد يتحدث عنها إجمالا ثم تفصيلا موجزا. ويعرض عن الإسرائيليات، ويستطرد أحيانا في ذكر فوائد الآيات وما تدل عليه من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

رابعاً: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

المؤلف: محمد الأمين ابن محمد المختار الجكني الشنقيطي**[ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم في آخر تفسير الشيخ الشنقيطي]**. ولد رحمه الله تعالى في شنقيط وهي دولة موريتانيا الإسلامية الآن، سنة ١٣٢٥ تلقى العلوم الشرعية واللغة العربية، وحين أدى الحج اتصل بعلماء المملكة فأعجب بهم وأعجبوا به، وعزم على البقاء في هذه البلاد فأذن له الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بالتدريس في المسجد النبوي، وحين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة عُيِّن مدرسا فيها، وعُيِّن عضوا في هيئة كبار العلماء وعضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وتوفي –رحمه الله تعالى– سنة ١٣٩٣ بمكة. وله مؤلفات كثيرة منها: "منع جواز المجاز في المنزَّل للتعبد والإعجاز" و"دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب" وغير ذلك.

تفسيره:

وصل المؤلف –رحمه الله تعالى– في تفسيره هذا إلى آخر سورة المجادلة، ثم أكمل التفسير من بعده تلميذه عطية محمد سالم وصدر التفسير في عشرة مجلدات. تميز هذا **التفسير بميزتين:**

"**إحداهما**" تفسير القرآن بالقرآن، وقد التزم أن لايبين القرآن إلا بقراءة سَبعية ولم يعتمد البيان بالقراءات الشاذة.

"**والثانية**" بيان الأحكام الفقهية ودقة الاستنباط، وحسن التفصيل وقوة الاستدلال. كما تضمن هذا التفسير تحقيق بعض المسائل اللغوية وما يحتاج إليه من صرف وإعراب، وتحقيق بعض المسائل الأصولية، والكلام على أسانيد الأحاديث.

يعد هذا التفسير بحق من خير المؤلفات في التفسير قديمًا وحديثًا ومن أتْبَعِها للسنة وأبعدها عن البدعة، والقارئ فيه يجد حقيقة علم السلف ونقاء سريرة علماء السلف رحمهم الله، وصفاء عقيدتهم، ودقة استنباطهم، وسعة علمهم رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

تقسيمات معاصرة للتفسير :

من التقسيمات المعاصرة تقسيم القرآن إلى: **تحليلي** و **موضوعي** و **إجمالي**، فمن أهل العلم من قسم التفسير إلى تحللي و موضوعي، و منهم من جعله رباعيا: تحليلي و موضوعي و إجمالي و مقارن.

١ -التفسير التحليلي:

التحليل لغة مصدر حلل يحلل تحليلا، جاء في المعجم الوسيط:" حلل العقدة حلها والشيء رجعه إلى عناصره، والتحليل: تحليل الجملة بيان أجزائها و وظيفة كل منها."

يقول الدكتور مساعد الطيار:" التحليلي نسبة إلى التحليل، والمراد تفكيك الكلام على الآية لفظة لفظة، والكلام على ما فيها من معان وإعراب وأحكام وغيرها، ثم الانتقال إلى ما بعدها وهكذا ..... أي أن يعمد المفسر إلى تفسير الآيات حسب ترتيبها في السورة ويذكر ما فيها من معاني وأقوال و إعراب وبلاغة و أحكام وغيرها مما يعتني به المفسر" اهـ.

فالتفسير التحليلي هو الذي يتتبع فيه المفسر آيات القرآن-من أوله إلى آخره- يقف عند كل كلمة و لفظة فيفسرها و يقف عند كل آية فيحللها من جميع الوجوه: فيذكر ما يتعلق بالمعاني اللغوية والجوانب الإعرابية و يبين معاني الجمل و التراكيب ويذكر ما ورد في أسباب النزول وإن وردت آثار وأقوال عن السلف في تفسير الآية ذكرها.

و يعتبر هذا النوع من التفسير: النوع المهيمن على أغلب التفاسير إلى زماننا، فأشهر التفاسير كلها من هذا النوع، فتفسير ابن جرير و ابن كثير و المحرر الوجيز و جامع الأحكام للقرطبي وغيرها كلها من هذا القبيل، وكل من يؤلف في التفسير فإنه غالبا ينهج الأسلوب التحليلي.

٢ - التفسير الموضوعي:

يعتبر التفسير الموضوعي من المصطلحات التي ظهرت في هذا العصر، كنوع من أنواع التفسير الذي ينهج فيه صاحبه تفسير القرآن حسب الموضوع، فهو تفسير باعتبار الموضوع أو بمعنى أوضح عبارة عن جمع المفسر آيات القرآن الكريم المتناسبة في موضوع ما، والمتجهة إلى غاية واحدة، فيجمعها ويُكَوَّن منها موضوعا يفسره ليبين موقف القرآن منه.

والموضوع لغة اسم مفعول من مادة وضع، قال صاحب مختار الصحاح:" وضع الشيء من يده يضعه وضعا و موضعا و موضوعا أيضا و هو أحد المصادر التي جاءت على مفعول .".

والموضوع: الشيء الذي وضع في مكان ما حسيا كان أو معنويا، وفي المعجم: الموضوع المادة التي يبني عليها المتكلم و الكاتب كلامه.

وأما في اصطلاح أهل التفسير فهو:" علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة وبشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"، فأي موضوع جمع المفسر آياته من خلال القرآن وتتبعها وفسرها بطرق علمية مستندا إلى التفسير التحليلي لها، وجمع بحثه في رسالة أو كتاب أو مقال، يرجع إليه من أراد معرفة موقف القرآن الحكيم من هذا الموضوع ، سُمِيَ تفسيره تفسيراً موضوعياً.

قال الدكتور مساعد الطيار:" المراد بالموضوعي في اصطلاح أهل التفسير إما موضوع من خلال سورة و إما من خلال القرآن، مثلا" الأخلاق من خلال سورة الحجرات" أو " الأخلاق من خلال القرآن"" اهـ، ثم ميز بين البحث الدلالي و البحث الموضوعي فقال:" وأما دراسة لفظة من خلال القرآن، فإن كانت دراستها من جهة الدلالة و المعنى المراد بها في القرآن فإنها لا

تدخل في مسمى الموضوع، وإن كان المراد دراستها من جهة كونها موضوعا فإنها انتقلت من البحث الدلالي إلى الموضوعي" اهـ.

وقد مثل لذلك بكلمة"الخير" فإذا اهتم المفسر بالبحث عن مراد الله تعالى بهذه اللفظة والوقوف على معانيها في كل المواضع التي وردت فيها، فهذا لا يدخل في التفسير الموضوعي، وإنما اهتم بذلك أهل الوجوه و النظائر، أما إذا اهتم بكلمة "خير" وأراد أن يبحث عن الخير كموضوع من مواضع القرآن دون الاقتصار على معني لفظة خير، صار البحث موضوعياً.

وأذكر مثالا آخر: كلمة "الهدى"، إذا بحثنا عن هذه اللفظة في القرآن الكريم وعن مشتقاتها ومعانيها بحسب السياق، كان هذا بحثاً دلالياً، أي أننا نبحث عن دلالة هذه الكلمة، وهذا يدخل في " الوجوه والنظائر" حيث ذكر أهله أن لهذه الكلمة سبعة عشر وجها أو معنى، أما إذا بحثنا عن كلمة "الهدى" في القرآن الكريم كموضوع، فهذا هو الذي يدخل في التفسير الموضوعي.

ويعتبر ما يسمى بالتفسير الفردي اللبنة الأساسية لهذا النوع من التفسير، والمقصود بالتفسير الفردي تفسير المفردات لغة واصطلاحا، فعندما يشرع المفسر في جمع مفردة معينة من القرآن وما يتعلق بمعانيها وورودها في القرآن الكريم وما إلى ذلك فإنه يكون بذلك قد تكونت لديه النواة الأولى والأساسية للبحث الموضوعي المتعلق بهذه الكلمة أو اللفظة.

والتفسير الموضوعي و إن كان مصطلحا جديدا فإن له جذوراً عميقة، وربما يمكن القول بأن نشأة هذا النوع من التفسير ابتدأ من عهد النبي صلى الله عليه و سلم، وأصحابه الكرام عليهم من الله أفضل الرضوان، فقد كان الواحد منهم ربما سأل عن كلمة أشكلت عليه، وهذه الكلمة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فتتكون وحدة موضوعية لفكرة تطرأ في ذهنه يسأل عنها والنبي صلى الله عليه و سلم يبين و يزيل الإشكال، ولعل من أقرب الأمثلة لهذا، حديث ابن مسعود رضي الله عنه، حيث أشكل على الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى:﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن و هم مهتدون﴾ [الأنعام:٨٢] ، متسائلين: وأينا لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي صلى الله عليه و سلم أن الأمر ليس كما فهموا وإنما المراد بالظلم في هذه

الآية الشرك، ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣]، ففسر آية الأنعام بآية لقمان وهذه طريقة التفسير الموضوعي حيث يجمع المفسر الآيات المتعلقة بموضوع وينظر إليها مجتمعة حتى يتبين له موقف القرآن الكريم من هذا الموضوع أو ذاك.

وهذا النوع من التفسير كما قلت وإن كان له أصل في التفسير النبوي الشريف، لكنه لم يظهر كمصطلح و قسم يصطلح عليه بهذا الاسم إلا في العصر الأخير، وقد أدى إلى ظهوره عدة أسباب متظافرة، نذكر منه على سبيل المثال:

ظهور المعاجم و الفهارس التي تعنى بدراسة القرآن، و الغريب أن معظم هذه الوسائل هي من وضع المستشرقين الذين لاهدف لهم إلى الطعن في الإسلام و أهله، فاضطروا لتحقيق هذا الهدف إلى دراسة كل ما يتعلق بالحضارة الإسلامية و تخصصوا في كل فروعها، فاتجهت ثلةٌ منهم إلى التخصص في دراسة القرآن الكريم لكونه كان مصدر قوة المسلمين و عزهم و فتوحاتهم لما تمسكوا به حق التمسك. فوضعوا المعاجم والفهارس والوسائل التي تمكنهم من فهم القرآن .. وقد أفاد هذا في ظهور هذا النوع من التفسير.

٣ - التفسير الإجمالي:

الإجمال من أجمل يجمل إجمالا، قال ابن منظور في اللسان: "أجمل الشيء إذا جمعه عن تفرقة وأجمل الحساب كذلك، والجملة جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره، يقال: أجملت له الحساب والكلام، قال الله تعالى: ﴿لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة﴾.

وقال ابن دريد:" وأجملت الشيء إجمالا إذا جمعته عن تفرقة، وأكثر ما يستعمل ذلك في الكلام الموجز، يقال: أجمل فلان الجواب" – جمهرة اللغة–، وقيل إن الهمزة في الفعل أجمل هي همزة الجعل أي جعلت الشيء مجملا.

وقال صاحب تاج العروس:" والجملة بالضم: جماعة الشيء كأنها اشتقت من جملة الحبل لأنها قوى كثيرة جمعت فأجملت جملة، وقال الراغب: واعتبر معنى الكثرة فقيل لكل جماعة غير منفصلة جملة، قلت – القائل هو الزبيدي صاحب تاج العروس–: ومنه أخذ النحويون الجملة

لمركب من كلمتين أسندت إحداهما للأخرى، وفي التنزيل:" قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة" أي: مجتمعا لا كما أنزل نجوما مفترقة".

فنخلص إلى أن لفظ الإجمالي نسبة إلى الإجمال، أو نسبة إلى الجملة، ولا منافاة لأن الإجمال جمع الشيء عن تفرقة و كذلك الجملة فهي جمع لكلمات مفترقة أسند بعضها إلى بعض مكونة جملة.

أما المعنى الاصطلاحي للتفسير الإجمالي: فهو التفسير الذي يقتصر فيه المفسر على تفسير الآية جملة واحدة ولا يحللها أو يفك ألفاظها لفظة لفظة كما هو الشأن بالنسبة للتفسير التحليلي.

وقيل: التفسير الإجمالي هو "الذي يفسر فيه المفسر المعاني العامة الإجمالية لما يريد تفسيره من معاني الكلمات الكريمة في آية أو آيات أو في سورة أو ما إلى ذلك."

سورة الفاتحة

وهى مكية، وقيل: مدنية، ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه. وهى سبع آيات بلا خلاف. وإنما اختلفوا فى البسملة: هل هى آية مستقلة من أولها كما هو المشهور عن جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض آية؟ أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتى تقريرها فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قال البخارى فى أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب ؛ لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمرًا أو مقدم لأمر ـ إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع ـ أُمّا، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أمّا.

ويقال لها أيضًا: الفاتحة؛ لأنها تفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثانى، قالوا: لأنها تثنى فى الصلاة، فتقرأ فى كل ركعة، وإن كان للمثانى معنى آخر غير هذا، كما سيأتى بيانه فى موضعه، إن شاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال فى أم القرآن: «هى أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى القرآن العظيم» ورواه ابن جرير أيضا بنحوه . وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم، وهى أم الكتاب ، وفاتحة الكتاب ». وقد رواه الدارقطنى ـ أيضا ـ عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله، وقال: كلهم ثقات. ورواه البيهقى عن على وابن عباس وأبى هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾[الحجر:٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هى الآية السابعة منها .

فضل الفاتحة :

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رضى الله عنه قال: كنت أصلى فدعانى رسول الله ﷺ، فلم أجبه حتى صلَّيت فأتيته ، فقال: «ما منعك أن تأتينى؟». قال: قلت: يا رسول الله، إنى كنت أصلى. قال: «ألم يقل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] »، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن». قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هى: السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته» (١). ورواه البخارى وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه ، ورواه

(١) هو فى المسند (٤/ ٢١١ طبعة الحلبى)، ورواه أيضا قبل ذلك بنحوه (١٧٥٩٥) (٣/ ٤٥٠ حلبى).

الواقدى عن أبى سعيد بن المُعَلَّى، عن أبى بن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع فى الموطأ للإمام مالك بن أنس ، ما ينبغى التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقى: أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم: أن رسول الله ﷺ نادى أبى بن كعب، وهو يصلى فى المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبى ﷺ يده على يدى، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إنى لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها». قال أبىّ: فجعلت أبطئ فى المشى رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، السورة التى وعدتنى؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هى هذه السورة، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيت». فأبو سعيد هذا ليس بأبى سعيد بن المُعَلَّى، كما اعتقده ابن الأثير فى جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المُعَلَّى صحابى أنصارى، وهذا تابعى من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبىّ بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم(١) ، والله أعلم.

على أنه قد روى عن أبىّ بن كعب من غير وجه كما روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبى بن كعب، وهو يصلى، فقال: «يا أبى»، فالتفت فلم يجبه، ثم صلى أبى، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أىْ رسول الله. قال: «وعليك، ما منعك أىْ أبىّ إذ دعوتك أن تجيبنى؟». قال: أىْ رسول الله، كنت فى الصلاة، قال: «أفلست تجد فيما أوحى الله إلى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ». قال: بلى يا رسول الله، لا أعود قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل فى التوراة ولا فى الزبور ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها؟» قلت: نعم، أىْ رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدى يحدثنى، وأنا أتبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دنونا من الباب قلت : أىْ رسول الله ، ما السورة التى وعدتنى ؟ قال : « فكيف تقرأ فى الصلاة ؟ ». قال: فقرأت عليه أم القرآن ، قال : « والذى نفسى بيده ، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ، ولا فى الفرقان مثلها ؛ إنها السبع المثانى» (٢) . ورواه الترمذى، وعنده: «إنها من السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته»، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن أحمد، عن أبى هريرة، عن أبى بن كعب، فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه(٣). وقد رواه الترمذى والنسائى، عن أبى هريرة، عن أبىّ بن كعب، قال:

---

(١) الحديث فى الموطأ ، ص ٨٣ ، باختلاف فى الألفاظ قليل . وانظر : جامع الأصول (٦٢٢٥).

(٢) الحديث فى المسند (٩٣٣٤) (٢/ ٤١٢ حلبى). وقد صححناه فى هذا الموضع على ما فى المسند.

(٣) هو فى المسند (٥/ ١١٤، ١١٥ حلبى) .

قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى مقسومة بينى وبين عبدى »، هذا لفظ النسائى. وقال الترمذى: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يارسول الله. فلم يرد علىّ. قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشى، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزيناً، فخرج علىّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة فى القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختمها». هذا إسناد جيد [(١)]. وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى، ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدىّ، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر[(٢)].

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن القصّار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلا، نقله القُرطُبى عن الأشعرىّ، وأبى بكر الباقلانى، وابن حبان، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك.

وقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا فى مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نَفَرَنا غُيَّب، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نَأبِنُه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لا تُحْدِثُوا شيئاً حتى نأتى، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ فقال: «وما كان يُدْريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لى بسهم» [(٣)]. ورواه مسلم، وأبو داود وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذى رقى ذلك السليم، يعنى: اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا.

وروى مسلم فى صحيحه، والنسائى فى سننه، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبى ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد

---

(١) هو فى المسند (١٧٦٧٣) (٤/ ١٧٧حلبى).

(٢) بين الحافظ ابن حجر فى التعجيل، ص٢١٦ أنه البياضى الأنصارى. وأما العبدى فذكر أن له حديثا آخر، وأنه قيل: إن اسمه « عبد الرحمن».

(٣) هو فتح البارى (٩/ ٤٩). وقوله « ما كنا نأبنه برقية» قال ابن الأثير: « أى ما كنا نعلم أنه يرقى، فنعيبه بذلك». وهو من قولهم: « أبنه يأبنه»، إذا رماه بخلة سوء.

أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائى(١). وروى مسلم: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج ـ ثلاثاً ـ غير تمام». فقيل لأبى هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها فى نفسك؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: مجدنى عبدى» ـ وقال مرة: «فوض إلى عبدى» ـ « فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» (٢).

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بحكم الفاتحة من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ١١٠]، أى: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا قال فى هذا الحديث: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل»، ثم بيَّن تفضيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة، فدل على عظم القراءة فى الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به فى الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة فى الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا فى: أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هى أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم: أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت فى الصحيحين، من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء صلاته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولاغيرها، فدل على ما قلنا.

والقول الثانى: أنه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية

---

(١) هو فى النسائى (١/ ٤٥) . وفى آخره : « إلا أعطيته » بدل « أوتيته » . ورواية مسلم هى فى الصحيح (١/ ٢٢٢) . وهذا الحديث لم أجده فى مسند أحمد ، على سعته.

(٢) هو فى صحيح مسلم (١/ ١١٦) والنسائى (١/ ١٤٤، ١٤٥) ورواه مالك فى الموطأ ص٨٤، ٨٥ ، وكذلك رواه أحمد فى المسند (٧٢٨٩، ٧٤٠٠) ، ورواه الطبرى مختصرا (٢٢١ ـ ٢٢٣) .

الأئمة: مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِدَاج» والخداج هو: الناقص كما فسَّر به فى الحديث: «غير تمام». واحتجوا ـ أيضاً ـ بما ثبت فى الصحيحين عن عبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفى صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن». والأحاديث فى هذا الباب كثيرة.

ثم إن مذهب الشافعىّ وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها فى كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها فى معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من الصلاة، أخذاً بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠] ،والله أعلم. وقد روى ابن ماجه عن أبى سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد وسورة ، فى فريضة أو غيرها» . وفى صحة هذا نظر.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثانى: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا فى الصلاة الجهرية ولا السرية؛ لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن فى إسناده ضعف . ورواه مالك، عن وهب بن كَيْسَان، عن جابر من كلامه. وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شىء منها عن النبى ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية، لما تقدم، ولا تجب فى الجهرية لما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبَّر فكبّروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث. وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعى، ورواية عن الإمام أحمد . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، فقد أمنت من كل شىء إلا الموت» (١).

(١) الحديث فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٢١) ، وقال: « رواه البزار ، وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان . وبقية رجاله رجال الصحيح » . أقول: وغسان بن عبيد الموصلى، مترجم فى لسان الميزان ، وأنه ضعفه أحمد ، والبخارى . وأنه اختلف فيه قول يحيى بن معين بين التوثيق والتضعيف ، إلا أنه صرح بأنه «لم يكن من أهل الكذب » . وترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣/ ٢/ ٥١) ، ولم يذكر فيه جرحًا، أمارة توثيقه عنده .

الكلام على تفسيرها :

الاستعاذة :

قال الله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] ، وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسى والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعُه الطَّيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: ٢٧] ، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر: ٦] وقال: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم: إنه لمن الناصحين،وكذب،فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩] ؟

والمشهور الذى عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: ٩٨] أى: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ**﴾ الآية [المائدة: ٦] أى: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. فروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرىّ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همْزه ونَفْخه ونَفْثه » . وقد رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذى: هو أشهر شىء فى هذا الباب. وقد فسَر.الهمز بالموتة (١) وهى الخنق، والنَّفخ بالكبر، والنفث بالشعر.

كما روى أبو داود وابن ماجه عن ابن جبير بن مطعم، قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً ـ الحمد لله كثيراً ـ ثلاثاً ـ سبحان الله بكرة وأصيلا ـ ثلاثاً ـ اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونفثه». قال عمرو بن مرة: وهمزه الموتة، ونفخه الكبْر، ونفثه الشعر(٢). وروى ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ

---

(١) الموتة ـ بضم الميم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه عقله، كالنائم والسكران.

(٢) هو فى ابن ماجه (٨٠٧) .

قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهَمْزه ونفخه ونفثه». قال: همزه: الموتة، ونَفْثُه: الشعر، ونفخه: الكِبْر(١). وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أبى بن كعب، قال: تلاحى رجلان عند النبى ﷺ، فَتَمزّع أنفُ أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة. وروى الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذى، والنسائى فى اليوم والليلة، عن معاذ بن جبل، قال: استَب رجلان عند النبى ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خُيِّل إلىّ أن أحدهما يَتَمزّع أنفه من شدة غضبه، فقال النبىّ ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» فقال: ما هى يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبى داود. وقال الترمذى: مرسل، يعنى أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبىّ بن كعب، كما تقدم، وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم. فروى البخارى: عن سليمان بن صُرَد قال: استب رجلان عند النبى ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضَباً قد احمر وجهه ، فقال النبى ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ ؟ قال: إنى لست بمجنون . ورواه مسلم وأبو داود والنسائى.

فصل : ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أى: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى، أو يصدنى عن فعل ما أمرت به، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه، وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة (٢) .

والشيطان فى لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح فى المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب. وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط.

والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جنى وإنسى وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام: ١١٢].

---

(١) هو فيه (٨٠٨) . وقال البوصيرى فى زوائده : « رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث أبى سعيد الخدرى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من حديث جبير بن مطعم » ، يعنى الحديثين اللذين قبل هذا.

(٢) أعاد الحافظ رحمه الله ـ ذكر الآيات الثلاث ، وقد مضين فى الصفحة السابقة.

وفى مسند أحمد، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»(١). وفى صحيح مسلم عن أبى ذر ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وروى الطبرى أن عمر بن الخطاب ركب برْذوناً، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتمونى إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى. وإسناده صحيح.

و« الرّجيم»: فعيل بمعنى مفعول، أى: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴾

افتتح بها الصحابةُ كتاب الله، واتّفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثمّ اختلفوا: هل هى آية مستقلة فى أوّل كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت فى أوّلها، أو أنها بعض آية من أوّل كل سورة؟ أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع. وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وأخرجه الحاكم فى المستدرك. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر ابن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جُرَيْج، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عنها ، وروى له الدارقطنى متابعاً، عن أبى هريرة مرفوعاً . وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما.

وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلىّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل ـ فى رواية عنه ـ وإسحاق بن راَهويَه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله (٢).

---

(١) رواه النسائى (٢/ ٣١٩) هكذا مختصرا . وهو فى المسند ضمن روايتين مطولتين (٥/ ١٧٨، ١٧٩ حلبى). ورواه أيضا ضمن حديث مطول عن أبى أمامة (٥/ ٢٦٥).

(٢) وهو القول الصحيح ، الذى تنصره الدلائل الصحاح ، من الكتاب والسنة. ومن أقواها أن جميع المصاحف الأمهات ، التى كتبها عثمان بن عفان ، وأقرها الصحابة جميعا ، دون ما عداها ـ كتبت فيها البسملة فى أول =

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود: هى آية مستقلة فى أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد . وحكاه أبو بكر الرازى، عن أبى الحسن الكرخى، وهما من أكابر أصحاب أبى حنيفة.

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا. فأمّا ما يتعلق بالجهر بها، فمفرّع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أوّلها، وأمّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعى، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً ، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، ونقله الخطيب عن سعيد بن جبير، وعكْرِمة، وأبى قِلاَبة، والزهرى، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

وروى أبو داود والترمذى، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذى: وليس إسناده بذاك. وقد رواه الحاكم فى المستدرك، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفى صحيح البخارى، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبى ﷺ فقال: كانت قراءته مدا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطنى: إسناده صحيح. وروى الإمام الشافعى ، والحاكم فى المستدرك، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرّة الثانية بسمل.

وفى هذه الأحاديث، والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة،وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبى حنيفة، والثورى، وأحمد بن حنبل.

= كل سورة سوى براءة . وأن الصحابة رضوان الله عليهم ،إذ جمعوا القرآن فى المصاحف، جردوه من كل شىء غيره ، فلم يكتبوا أسماء السور ، ولا أعداد الآى ، ولا كلمة « آمين » . ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ما ليس من كتاب الله فى المصاحف ، حرصا منهم على حفظ كتاب الله ، وخشية أن يشتبه على أحد ممن بعدهم فيظن غير القرآن قرآنا . أفيعقل ـ مع هذا كله ـ أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسملة زيادة على ما أنزل على رسول الله ؟ ! ألا يدل هذا دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العملى المؤيد بالكتابة المتواترة ـ على أنها آية من القرآن فى كل موضع كتبت فيه ؟

وقد فصلنا القول فى ذلك ، فى بحث طويل ، فى شرحنا على الترمذى (٢/١٦ ـ ٢٥) .

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما فى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما فى الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صلَّيْتُ خلف النبىّ ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أوّل قراءة ولا فى آخرها. ونحوه فى السنن عن عبد الله بن مُغَفَّل رضى الله عنه .

فهذه مآخذ الأئمة، رحمهم الله، فى هذه المسألة وهى قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، ولله الحمد والمنة.

فصل فى فضلها : روى الإمام أحمد فى مسنده : عن عاصم، قال: سمعت أبا تميمة يحدث، عن رديف النبى ﷺ قال: عُثر بالنبى ﷺ، فقلت: تَعِس الشيطان. فقال النبى ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت:تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتى صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد(١)، وقد روى النسائى فى اليوم والليلة وابن مردويه عن أسامة بن عمير قال: كنت رديف النبى ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة»(٢).

فهذا من تأثير بركة بسم الله؛ ولهذا تستحب فى أوّل كل عمل وقول. فتستحب فى أوّل الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث فى ذلك، وتستحب فى أوّل الوضوء لما جاء فى مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبى هريرة، وسعيد بن زيد، وأبى سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً فى قول بعضهم، كما سيأتى بيانه فى موضعه ، إن شاء الله.

وهكذا تستحب عند الأكل لما فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبى سلمة: «قل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما فى الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قوله: بسم الله،

---

(١) هو فى المسند (٥/٥٩ ، ٧١ ، ٣٦٥ حلبى) بأربعة أسانيد .

(٢) ورواه أبو داود (٤٩٨٢) عن أبى المليح عن رجل ، قال : « كنت رديف النبى ﷺ . . . ».

هل هو اسم أو فعل ـ متقاربان . وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: بسم الله ابتدائى، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل ، فلقوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لابُدّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلا أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله فى الشروع فى ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم.

﴿ اللَّه ﴾: عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى، ويقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤] ، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وجاء تعدادها فى رواية الترمذى ، وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادات ونقصان.

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من «فَعل يَفعل»، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبى عن الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم،وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابى: ألا ترى أنك تقول: يا أله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبَة بن العَجّاج:

لله درّ الغانيات المُدّه سَبحنَ واسترجعن من تألهى(١)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يأله إلاهة وتألهاً، كما روى أن ابن عباس قرأ: «ويذرك وَإلاهَتَك» قال: عبادتك، أى: أنه كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وأصل ذلك « الإله »، فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة، فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أوّلها للتعريف فأدغمت إحداهما فى الأخرى، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشددة، وفخمت تعظيما، فقيل: الله.

---

(١) « المده » بضم الميم وتشديد الدال ، من « المده » بفتح الميم وسكون الدال . وهو المد . قيل : إن الهاء بدل من الحاء ، وقيل : المده فى نعت الهيئة والجمال ، والمدح فى كل شىء .

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفى كلام ابن جرير ما يُفْهم منه حكاية الاتفاق على هذا ، وقال القرطبى : والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» . قال: وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبى: قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، للرجل الممتلئ غضبا ، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو على الفارسى: الرحمن: اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابى وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء فى الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله، وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» (١) . وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» .

قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] ، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء فى الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ خاص به لم يسم به غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥]. ولما تجهرم مسيلمة الكذاب (٢) وتسمى بـ « رحمن اليمامة » كساه الله جلباب الكذب وشَهَره به ، فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب ، فصار يضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب .

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٩٠٢) من حديث على ، مرفوعًا . ورواه بنحوه أيضًا الشيخان ، من حديث عائشة . انظر : صحيح مسلم ٢ / ٢٨٥ .

(٢) هذا الحرف « تجهرم » حرف غريب ، لم أجد، فى شىء من المعاجم ، ولا فى المصادر الأخرى. وأنا أستسيغه جدا بذوقى العربى ، لا أجدنى نافرا منه، ويخيل إلى أنه حرف مولد من مجموع مادتين ، كأنه من مادتى «جهر» و «حرم» ، كأنه يراد به تجاهر بجرمه . كما مزجوا من مادتين أو أكثر « حمدل» و «حسبل» و«بسمل» و«هلل» و «حوقل» ونحو ذلك.

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشهر الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخارى، وفى بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت فى كفرهم؛ فإنه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ... ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبِّى يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوى:

عَجِلتم علينا عَجْلَتينَا عليكُمُ ... وما يَشَأ الرَّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ (١)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً.

وقال ابن جرير رحمه الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال: وقد قيل: إن قول القائل: «الحمد لله»، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع

---

(١) فى المطبوعة: «إذ عجلنا» بدل «عجلتينا» والصواب من الأزهرية، وهو الموافق لما فى الطبرى (١/ ١٣١) من طبعتنا.

فى رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. وهذا الذى ادعاه فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكن اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية ، كما تقدم ، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلىّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم. وقال الجوهرى: الحمد نقيض الذم، تقول: حَمِدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال فى الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح.

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». ورواه النسائى[1] . وروى الترمذى ، والنسائى وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله » قال الترمذى: حسن غريب. وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : « أن عبداً من عباد الله قال : يارب ، لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ: ماذا قال عبدى؟ قالا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها»[2].

والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله» الحديث.

و « الرب » هو: المالك المتصرف، ويطلق فى اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح،

(١) هو فى المسند (١٥٦٥٠) (٣/ ٤٣٥حلبى) ، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ١٢) لأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى والحاكم وصححه ، وغيرهم.

(٢) هذا الحديث ليس فى الأزهرية ، وقد صححناه من سنن ابن ماجه (٣٨٠١) وإسناده جيد ، ليس فيه مجروح.

وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم .

و« العالمين »: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات فى السموات والأرض فى البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليه فى البسملة بما أغنى عن إعادته. قال القرطبى : إنما وصف نفسه بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بعد قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ، كما قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر :٤٩ ، ٥٠] ،وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] . قال : فالرب فيه ترهيب ، و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ترغيب . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد » .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾

قرأ بعض القراء: ﴿ مَلِكِ ﴾. وقرأ آخرون: ﴿ مَالِكِ ﴾. وكلاهما صحيح متواتر فى السبع.

ويقال: مَلْك ـ بكسر اللام وإسكانها ـ ويقال: مليك أيضاً، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: «ملكى يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشرى « ملك » ؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ، ولقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦] ، ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ [الأنعام : ٧٣].

ومالك مأخوذة من الملْك، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذ من المُلْك كما قال تعالى: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ، وقال: ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه ؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨] ، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وعن ابن عباس قال: يوم الدين يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر،

إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر .

والملك في الحقيقة هو الله ، عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ ﴾ [الحشر : ٢٣] ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، مرفوعًا : «أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله » . وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال :« يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ». وفي القرآن العظيم : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ، ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِك ﴾ [الكهف : ٧٩] ، ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠]، وفي الصحيحين: «مثل الملوك على الأسرة».

و « الدين » : الجزاء والحساب كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [النور : ٢٥] ، وقال : ﴿ أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٣] أي : مجزيون محاسبون. وفي الحديث:« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » (١) أي : حاسب نفسه لنفسه . كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم:«أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة. و ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش، فإنهما كسراها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم .

والعبادة في اللغة: من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبعير مُعَبَّد، أي: مذلل. **وفي الشرع:** عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله،عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبُهُ؛ لأنه لما أثنى على الله

(١) من حديث رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم ، من حديث شداد بن أوس ، مرفوعا.

فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى ؛ فلهذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . وفى هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء فى الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفى صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحُرَقة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هى المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعى واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلى فرد منهم، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض، فقل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ألطف فى التواضع من إياك أعبد، لما فى الثانى من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثنى عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى.

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين ، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾

لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب بالسؤال ؛ كما قال : «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته ؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول ، كقول ذى النون : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول، كقول الشاعر:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله : ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا.

وأما « الصراط المستقيم»، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله.

وفى هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة،وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم» [1] ورواه الترمذى والنسائى وابن أبى حاتم

(١) هو فى المسند (١٧٧١١) (٤/ ١٨٢، ١٨٣) ، وفى بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا . فلعله اختلاف فى نسخ المسند . ورواية الطبرى ، التى أشار إليها ابن كثير ، مختصرة ، وهى برقمى (١٨٦، ١٨٧).

الطبرى. إسناده حسن صحيح ، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ : الحق. وهذا أشمل،ولا منافاة بينه وبين ما تقدم. وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن أبى العالية: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو النبى ﷺ، وصاحباه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهى متلازمة، فإن من اتبع النبى ﷺ، واقتدى باللذين من بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد.

وروى الطبرانى عن عبد الله [1]، قال: الصراط المستقيم: الذى تركنا عليه رسولُ الله ﷺ.

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى ـ أعنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ـ أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له مَنْ أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وُفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبىّ ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى فى تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] ، وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

(١) عبد الله : هو ابن مسعود ، وإسناد الطبرانى إليه إسناد صحيح.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و« الذين أنعم عليهم »: هم المذكورون فى سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا. ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: يعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـ «لا»، ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غيْر﴾ ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى ،ومنهم من زعم أن « لا » فى قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنه كان يقرأ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ». وإسناده صحيح، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جىء بـ « لا » لتأكيد النفى، وللفرق بين الطريقتين، لتجتنب كلّ منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، وأخص أوصاف النصارى الضلال ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار.

فروى الإمام أحمد: عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمُنّ على مَنّ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمنّ علىّ، فلما رجع، ورجل إلى جنبه ترى أنه عَلِىّ ـ قال : سليه حُمْلانا ، فسألته ، فأمر لها ، قال : فأتتنى ، فقالت :

لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبى ، وذكر قربهم من النبىّ ﷺ ، قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فقال : « يا عدى ، ما أفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شىء أكبر من الله، عز وجل؟». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وإن قال: «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى». ورواه الترمذى ، وقال: حسن غريب (١). وروى عبد الرزاق: عن عبد الله بن شَقِيق، أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ، وهو بوادى القُرَى، على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم ـ وأشار إلى اليهود ـ والضالون هم النصارى» وقد روى مرسلا ، لم يذكر فيه من سمع رسول الله ﷺ (٢) .

وكذلك قال ابن عباس والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبى حاتم: ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى فى خطابه مع بنى إسرائيل فى سورة البقرة: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال فى المائدة : ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فصل : اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة، المفضى بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما

---

(١) هو بطوله فى المسند (٤/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ حلبى) ، وفى الترمذى (٤/٦٧) ، ورواه أحمد قبل ذلك (٤/٢٥٧) من وجه آخر ، مختصراً .

(٢) رواه الطبرى (١٩٨) من طريق عبد الرزاق . وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٣١٠، ٣١١) بنحوه من روايتين ،وقال: « رواه كله أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » وهو كما قال.

أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحــذف الفاعل في الغضب في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذى أضلهم بقدَره، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغى، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١). يعنى فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس ـ بحمد الله ـ لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل: يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين ، ويقال: أمين. بالقصر أيضاً ، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذى ، عن وائل بن حُجْر ، قال : سمعت النبىّ ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، ومد بها صوته، وقال الترمذى: حديث حسن. وروى عن على، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبى هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن.

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد فى حق المصلى، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفى جميع الأحوال، لما جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة ،أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم:أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم فى الصلاة: آمين، والملائكة فى السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعنى الإمام: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله».

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين». الحديث. واستأنسوا ـ أيضاً ـ بحديث أبى موسى ، وقد قدمنا فى المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة . وسيأتى فى الآية (٧) من سورة آل عمران ، إن شاء الله . وقد فصلنا القول فى تخريجه ، فى الطبرى (٥٦٦٠٥ ـ ٦٦١٥) وفى صحيح ابن حبان (٧٢، ٧٥) .

والسلام كان يؤمن إذا قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (١) .

وقد اختلف أصحابنا فى الجهر بالتأمين للمأموم فى الجهرية، وحاصل الخلاف: أن الإمام إن نسى التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمَّن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبى حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد». ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين مَنْ فى أرجاء المسجد، والله أعلم.

(١) حديث أبى هريرة فى الموطأ ، ص ٨٧ . وحديث أبى موسى مضى قبل أسطر ، وليس فيهما دلالة لما يقول أصحاب مالك ، فإن هذا من الاختصار فى الكلام . وقد روى مالك نفسه فى الموطأ ـ قبل هذا الحديث ـ حديث أبى هريرة الماضى : «إذا أمّن الإمام فأمنوا » . فالحديثان عن أبى هريرة فى معنى واحد، وإن اختلف اللفظان قليلا.

تفسير سورة الضحى
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير (١) . وقد ذكر بعض السلف ـ منهم ابن إسحاق ـ أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]. قال: قال له هذه السورة: ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ . قال ابن عباس : لما نَزَلَ على رسول الله ﷺ القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى : سكن فأظلم وادلَهَم . قاله مجاهد ، وقتادة ،وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى : ما تركك، ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أى : وما أبغضك، ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم من سيرته . ولما خُيِّرَ ، عليه السلام ، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ،وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . روى الإمام أحمد عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلت

(١) المسند (٤ / ٣١٢) والبخارى (١١٢٤، ١١٢٥ ، ٤٩٥٠ ، ٤٩٥١ ، ٤٩٨٣) ومسلم (١٧٩٧ / ١١٤) ، والترمذى (٣٣٤٥) وابن ماجه (٣٢٥٠) وابن جرير فى التفسير (٣٠/١٤٨) .

أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ! ما أنا والدنيا ؟ ! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها ». ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر . عن عبد الله بن عباس قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير (٢) ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف. وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

ثم قال تعالى يعدد نعَمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه تُوفّى وهو حَملٌ فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمانى سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره وَيُوقّره ، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره ، إلى أن تُوفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم آوَوه ونَصَرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكَلاءته وعنايته به .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . وفى الصحيحين عن أبى هُرَيرة قال :قال رسول الله ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العَرَض،ولكن الغنى غنى النفس » (٣) . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال :

---

(١) المسند (٣٧٠٩) والترمذى (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠/١٤٩) .

(٣) البخارى (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١ / ١٢٠) .

قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » (١) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسِنْ إليه ، وتلطف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم. ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فَحَّاشا ، ولا فَظّا على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعنى رَدّ المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى: « واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » . وعن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها . وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ورواه الترمذى ، وقال : صحيح (٢) . وروى أبو داود عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطَى عَطاء فَوَجَد فَليَجزْ به ، فإن لم يجد فَلْيُثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ». تفرد به أبو داود (٤). وقال مجاهد: يعنى النبوة التى أعطاك ربك. وفى رواية عنه: القرآن . وقال الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فَحَدث إخوانك . وقال ابن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة، فصلى .

---

(١) مسلم (١٠٥٤ / ١٢٥) .

(٢) أبو داود (٤٨١١) والترمذى (١٩٥٤) ، وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٤٨١٤) ، وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود (٤٨١٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة ألم نشرح
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعنى : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فَسيحاً رحيباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعاً سمحاً سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء (١) ، فإن من جملة شرح صدره الذى فُعِل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال: « لقد سألتَ يا أبا هريرة ، إنى لفى الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلانى بوجوه لم أرها [لخلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدى ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعانى بلا قَصْر ولا هَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له: أخرج الغِلّ والحَسَد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم. فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير » (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢]

---

(١) انظر الأحاديث أول سورة الإسراء .

(٢) المسند (٥ / ١٣٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » . وما بين المعقوفين من المسند .

﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلك حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد: لا أُذْكرُ إلا ذُكِرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه فى الدنيا والآخرة ،فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربى مسألة وَدَدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قال: قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » (١) .

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به،وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ،ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾: أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فَرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته:«لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » (٢) . وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعَشَاء » (٣) . قال مجاهد فى هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة ، فانصب لربك، وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى: فى الدعاء. وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿ فَانصَبْ ﴾ أى: فى العبادة. ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٢٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) مسلم (٥٦٠ / ٦٧) . (٣) البخارى (٥٤٦٥) .

تفسير سورة التين

وهى مكية

عن البراء بن عازب : كان النبى ﷺ يقرأ فى سَفَر فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة فى كتبهم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة ، فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هى نفسها . وقيل : الجبل الذى عندها . وقال مجاهد : هو تينكم هذا . ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ قال قتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذى تعصرون . ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قال غير واحد : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى . ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأمين ﴾ يعنى : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعى ، ولا خلاف فى ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه مَحَالُّ ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم . والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى ابن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ . قالوا : وفى آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء ـ يعنى الذى كلم الله عليه موسى بن عمرن ـ وأشرق من سَاعيرَ ـ يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعنى : جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً ـ فذكرهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سَوىّ الأعضاء حسنها . ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

---

(١) البخارى (٤٩٥٢) ومسلم (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود (١٢٢١) والترمذى (٣١٠) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٢) وابن ماجه (٨٣٤ ، ٨٣٥) .

﴿ سَافِلِين ﴾ أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم . ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . وقال بعضهم : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين ﴾ أى : إلى أرذل العمر . رُوى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ـ حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك ؛ لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم ،وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر : ١ ـ ٣] .

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، كما تقدم . ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعنى : يا بن آدم ﴿ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ؟ أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البدأة ، وعرفت أن من قدر على البدأة ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عَدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه .

تفسير سورة اقـرأ

وهى أول شىء نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ـ وهو : التعبد ـ الليالى ذواتَ العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى فَجَاه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ ». قال: «فأخذنى فَغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال: اقرأ . فقلت :ما أنا بقارئ. فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ :﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » قال : فرجع بها تَرجُف بَوادره حتى دخل على خديجة فقال: « زملونى زملونى ». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال: «يا خديجة، ما لى؟» فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على نفسى » . فقالت له: كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بن نوفل بن أسَد بن عبد العُزى بن قُصى ـ وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية (١) من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمىَ ـ فقالت خديجة : أىّ ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابنَ أخى، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جَذعا أكونُ حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ:« أومخرجىَّ هُم ؟ » . فقال ورقة: نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى،وإن يُدركنى يومك أنصرُكَ نصراً مُؤزراً .ثم لم ينشَب وَرَقة أن تُوُفِّى،وفَتَر الوحى فترة حتى حَزن رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مرارا كى يَتَردى من رؤوس شَوَاهق الجبال،فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال : يا محمد، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتَقَرُّ

(١) فى المطبوعة : « بالعبرانية » والمثبت من المسند والمخطوطة .

نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تَبَدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين(١).

فأول شىء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرَمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون فى الأذهان ، وتارة يكون فى اللسان ، وتارة يكون فى الكتابة بالبنان ، ذهنى ولفظى ورسمى ، والرسمى يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. وفى الأثر: قيدوا العلم بالكتابة .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ سجدة

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تَهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾: نزلت فى أبى جهل ،لعنه الله ، توعد النبى ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هى أحسن أولا ، فقال :﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال :﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أى : لنَسمَنَّها سوادا يوم القيامة .

ثم قال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعنى: ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعَالها. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَه ﴾ أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلبُ : أحزبُنا أو حزبه . روى البخارى عن ابن عباس :

(١) المسند (٦/٢٣٢) والبخارى (٣ ، ٤، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥) ومسلم (١٦٠/٢٥٢) .

قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عُنُقه . فبَلغَ النبى ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . وكذا رواه الترمذى والنسائى وابن جرير [١] . وروى أحمد، والترمذى وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد،ألم أنهك عن هذا ؟ ـ وَتَوعَّده ـ فأغلظ له رسول الله ﷺوانتهره ، فقال:يا محمد ، بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله:﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذى : حسن صحيح [٢] .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه.قال:فقال:« لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ،ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار،ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » [٣] . وروى ابن جرير عن أبى هُرَيرة قال : قال أبو جهل :هل يَعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفِّرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خَنْدقا من نار وهَولا وأجنحة. قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله ـ لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا ـ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ إلى آخر السورة . وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم، والنسائى [٤] .

وقوله:﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ ﴾يعنى: يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » [٥] . وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى:﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [٦].

---

(١) البخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٦٥) .

(٢) المسند (٣٠٤٥) والترمذى (٣٣٤٩) وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ١٦٤). وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٢٢٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ١٦٥) والمسند (٢/ ٣٧٠) ومسلم (٢٧٩٧ /٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٣) .

(٥) مسلم (٤٨٢ / ٢١٤) . (٦) مضى تخريج ذلك فى أول سورة الانشقاق .

تفسير سورة القدر
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله ، عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣] وهى ليلة القدر، وهى من شهر رمضان ، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة:١٨٥] . قال ابن عباس وغيره :أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثم قال تعالى مُعَظِّما لشأن ليلة القدر ، التى اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . وقال مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس فى تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعى ، وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائى: عمل فيها خير من عمل ألف شهر . وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ـ وليس فيها ليلة القدر ـ هو اختيارُ ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله ﷺ : « رِباطُ ليلة فى سبيل الله خَيْر من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » . رواه أحمد (١) . وكما جاء فى قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة : « أنه يُكتَبُ له عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها » إلى غير ذلك من المعانى المشابهة لذلك . ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه » (٢) .

وقوله :﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى: يكثر تَنَزُّلُ الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ،والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلَق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم

(١) المسند (٤٧٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .
(٢) البخارى (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠ / ١٧٥) .

ضرب من الملائكة. كما تقدم فى سورة « النبأ ». والله أعلم .وقوله: ﴿ من كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد: سلام هى من كل أمر. وقال: هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] .

وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبى قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .وقال قتادة وابن زيد فى قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ يعنى : هى خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر .

فصل : اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال الزهرى : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أُرى أعمار الناس قبله ـ أو : ما شاء الله من ذلك ـ فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر [١] . وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العُدّة » أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع ، والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن مَرْثَد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال: «بل هى إلى يوم القيامة ». قلت : فى أى رمضان هى ؟ قال: « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حَدّثَ رسولُ الله ﷺ وحَدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرين هى ؟ قال: « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » . ثم حدّث رسول الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته ، وقال : «التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » .ورواه النسائى [٢] .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة بعد النبى ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعدُ من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر

---

(١) مالك فى الموطأ (١/ ٣٢١) (١٥) .

(٢) المسند (٥/ ١٧١) والنسائى (٣٤٢٧).

الشهور ، لا كما رُوى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترجى فى جميع الشهور على السواء .

فصل : ثم قد قيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسولُ الله ﷺ العشر الأوَل من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال :إن الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها فى العشر الأواخر فى وِتْر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء ». وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نَرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قَزَعَة فَمُطرنا ، فصلى بنا النبى ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفى لفظ : « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين (١) . قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس فى « صحيح مسلم » (٢) وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » (٣) . فَسَّره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبى سعيد ، أنه حمله على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » (٤) . روى الإمام أحمد عن زِرّ : سألت أبىّ بن كعب قلت: أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِمُ الحَولَ يُصبْ لَيلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال: بالعلامة ـ أو : بالآية ـ التى أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس .وقد رواه مسلم، عن أبى ، فذكره ، وفيه : فقال: والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان ـ يحلف بما يستثنى ـ والله إنى لأعلم أى ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هى ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (٥) . وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجَادّة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حُكِىَ عن بعض

(١) البخارى (٢٠١٨) ومسلم (٢١٣/١١٦٧) .
(٢) مسلم (٢١٨/١١٦٨) .
(٣) البخارى (٢٠٢١) .
(٤) مسلم (١٧٩/٧٦٢) .
(٥) المسند (٥/ ١٣٠) ومسلم ، السابق .

السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون فى ليلة تسع وعشرين . روى أحمد بن حنبل عن أبى هريرة. أن رسول الله ﷺ قال فى ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى » (١) . تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

فصل : قال الشافعى فى هذه الروايات: صدرت من النبى ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : ألتمس ليلة القدر فى الليلة الفلانية ؟ يقول: « نعم ». وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنة: لا تنتقل. نقله الترمذى عنه بمعناه. وروى عن أبى قِلابَة أنه قال: ليلة القدر تنتقل فى العشر الأواخر (٢) .

وهذا الذى حكاه عن أبى قلابة نص عليه مالك ، والثورى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه، وأبو ثور، والمزنى ، وأبو بكر بن خُزَيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعى ـ نقله القاضى عنه، وهو الأشبه ـ والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت فى الصحيحين، عن عبد الله بن عُمر : أن رجالاً من أصحاب النبى ﷺ أروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان مُتحريها فَلْيَتَحرها فى السبع الأواخر» (٣) . وفيهما أيضاً عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » (٤) . ولفظه للبخارى .

ويحتج للشافعى أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخارى فى صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فَتَلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فَرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة » (٥) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها فى كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تَعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع .

وقوله : « فرفعت » أى : رفع علم تَعينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة » .

---

(١) المسند (٢/٥١٩) .
(٢) الترمذى (٣/١٥٩) .
(٣) البخارى (٢٠١٥)ومسلم (١١٦٥/ ٢٠٥) .
(٤) البخارى (٢٠١٧) ومسلم (٢١٩/١١٦٩).
(٥) البخارى (٢٠٢٣) .

وقوله :« وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان،حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجهُ من بعده. أخرجاه من حديث عائشة (١) . ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان (٢) .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر . أخرجاه (٣) . ولمسلم عنها : كان رسول الله ﷺ يجتهد فى العشر ما لا يجتهد فى غيره (٤) .

وهذا معنى قولها : « وشد المئزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شَدَّ مئزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد (٥) .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عنى»؛ لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى » .

وقد رواه الترمذى، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين (٦) .

---

(١) البخارى (٢٠٢٦) ومسلم (٣/١١٧٢) .
(٢) البخارى (٢٠٢٥) ومسلم (١/١١٧١) .
(٣) البخارى (٢٠٢٤) ومسلم (١١٧٤ /٧) .
(٤) مسلم (٨/١١٧٥) .
(٥) المسند (٦/٦٦) .
(٦) المسند (٦/ ١٨٢) والترمذى (٣٥١٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٨) وابن ماجه (٣٨٥٠) والحاكم (١/ ٥٣٠)، وصححه الألبانى .

تفسير سورة لم يكن
وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن أبى حيَّة البدرى ـ وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى ـ قال: لما نزلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلى آخرها ،قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيّاً. فقال النبى ﷺ لأُبى: « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة ». قال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبى (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » قال: وسمانى لك ؟ قال : « نعم ». فبكى. ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى (٢) . وروى أحمد عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن ». قال : فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (٣).

وإنما قرأ عليه النبى ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه ـ كما رواه ، أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى (٤) ـ كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شىء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبى ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : «أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : فَفضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت :« أسأل الله معافاته ومغفرته ». فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال: « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ » .

---

(١) المسند (٣/ ٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) والبخارى (٤٩٥٩) ومسلم (٧٩٩/ ٢٤٥) والترمذى (٣٧٩٢) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/ ١٣١) والترمذى(٣٧٩٣) .

(٤) المسند (٥/ ١٢٧) ومسلم (٨٢٠ / ٢٧٣) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائى (٤٩٠) .

قال : لا ، قال: « فإنك آتيه ، ومُطوَّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ الآية [الفتح: ٢٧] ، كما تقدم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد :لم يكونوا ﴿ مُنفكِّينَ ﴾ يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أي: هذا القرآن ؛ولهذا قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾. ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني: محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٣ـ ١٦] .

وقوله: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ قال ابن جرير: أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾: يذكر القرآن بأحسن الذكر ،ويثنى عليه بأحسن الثناء.وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة. وقوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥] يعني بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيرا .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : مُتَحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(١) مضى تخريجه عند تفسير هذه الآية .

(٢) عند الآية (١٦١) .

وهى أشرف عبادات البدن ، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة . وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ـ الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ـ بأنهم خير البرية .وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى: هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

تفسير سورة إذا زلزلت
وهى مكية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئنى يا رسول الله . قال له : « اقرأ ثلاثا من ذات الر ». فقال له الرجل : كبر سنى واشتد قلبى ، وغلُظ لسانى . قال: « فاقرأ من ذات حم » ، فقال مثل مقالته الأولى. فقال : « اقرأ ثلاثا من المسبحات »، فقال مثل مقالته . فقال الرجل : ولكن أقرئنى ـ يا رسول الله ـ سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجلُ : والذى بعثك بالحق ، لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل ،فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ! أفلح الرويجل ! » ثم قال : «عَلَىَّ به » . فجاءه فقال له : « أمرتُ بيوم الأضحى جعله الله عيدا لهذه الأمة » . فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا مَنيحَة أنثى فأضحى بها ؟ قال: « لا، ولكنك تأخذ من شعرك ،وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله ، عز وجل » .وأخرجه أبو داود والنسائى (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أى: تحركت من أسفلها . ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى : ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤] . وروى مسلم عن أبى هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ : « تَقِىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قَتَلْتُ ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قَطَعتُ رحمى، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطِعت يدى ، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً » (٢).

---

(١) المسند (٦٥٧٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (١٣٩٩) والنسائى (٤٣٦٥) .

(٢) مسلم (١٠١٣/ ٦٢) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار. وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أى: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. روى الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: « أتدرون ما أخبارها ؟ ». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها ، أن تقول: عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب (١) .

وقوله: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾: قال البخارى: أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٢) . وكذا قال ابن عباس: ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى: أوحى إليها .والظاهر أن هذا مُضَمَّنٌ بمعنى أذن لها. وقال ابن عباس :﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت . وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القُرَظى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم .وقال السُّدِّى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا. وقوله تعالى:﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

روى البخارى عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ؛فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طِيَلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنا ،ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شَرَفا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يَسقَى به كان ذلك حسنات له، وهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تَغَنيا وتعففا، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ،فهى له ستر. ورجل ربطها فخراً ورئاء ونواء ، فهى على ذلك وزر » . فسئُل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ، فقال: « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾. ورواه مسلم (٣) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٧٤) والترمذى (٣٣٥٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩٣) .

(٢) البخارى (٨ / ٧٢٦ فتح) . (٣) البخارى (٤٩٦٢) ومسلم (٩٨٧/ ٢٤) .

وفى صحيح البخارى، عن عَدى مرفوعا: «اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة» (١).
وفى الصحيح : « لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٢) .

وفى الصحيح أيضاً : « يا نساء المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة » (٣) يعنى : ظلفها .

(١) البخارى (٧٥١٢) .
(٢) مسلم (٢٦٢٦/ ١٤٤) .
(٣) البخارى (٢٥٦٦) .

تفسير سورة العاديات

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ❁ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ ربع وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت فى سبيله فَعَدت وضَبَحت ، وهو : الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى : اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار . ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ يعنى : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان ، فإن سمع أذانا وإلا أغار .

وقوله﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ يعنى : غباراً فى مكان معترك الخيول . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أى : توسطن ذلك المكان كُلَّهن جُمعَ .عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ قال : الإبل. وقال على : هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ عليا قولُ ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك فى سرية بعثت .

روى ابن أبى حاتم وابن جرير : عن ابن عباس ، قال : بينا أنا فى الحِجْر جالساً ، جاءنى رجل فسألنى عن :﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾، فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عنى فذهب إلى على ،وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقال :سألت عنها أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله . قال: اذهب فادعه لى . فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ،والله لئن كان أولَ غزوة فى الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فَرَسان: فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى .قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ورجعت إلى الذى قال على، رضى الله عنه . وقد قال بقول على : إنها الإبل جماعة . منهم: إبراهيم ، وعبيد بن عمير وبقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة، وعطاء وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. وقال أكثر هؤلاء فى قوله: ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى: بحوافرها. وقيل: أسعَرْنَ الحرب بين رُكبانهن. قاله قتادة. وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾

يعنى : مكر الرجال . وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل .وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صبحاً فى سبيل الله .وقال من فسرها بالإبل : هو الدفع صبحا من المزدلفة إلى منى .وقالوا كلهم فى قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو . وقوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جَمع الكفار من العدو .ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جَميعُهُن ، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة . وقوله :﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه بنعم ربه لجحود كفور . قال ابن عباس ، ومجاهد ،وإبراهيم النَّخعى ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، الكنود : الكفور. قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه . وقوله :﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثورى :وإن الله على ذلك لشهيد . ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظى، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ،أى : بلسان حاله ،أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧] .

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى:وإنه لحب الخير ـ وهو:المال ـ لشديد. وفيه مذهبان :

أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تعالى مُزَهِّدا فى الدنيا ، ومُرَغِّباً فى الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .